# أنف واحدةُ لوطنين

**سامي الشاطبي**

# أنف واحدةُ لوطنين

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة - ش الشيخ معروف من شارع
شمبليون عمارة ج-وسط البلد
تليفون: 20225743534+
البريد الإلكتروني: arweqhhhh@gmail.com
Arweqahhfor@outlook.com
رقم الإيداع: 2016/22222
الترقيم الدولي: ISBN: 454686655656

الطبعة الاولى
2017

سامي الشاطبي

# أنف واحدةُ لوطنين

روايــة

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

**محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي مؤسسة أروقة وتوجهها؛ بل يعبر عن رأي المؤلف وتوجهه.**

**إسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس هنا في صنعاء بـ(المولّد)..كوني من أم حبشية وأب يمني..وبرغم أنني فهمت من خلال ما سمعت وقرأت بأنّي هجّين، أي..أب من قارة وأم من قارة أخرى، فإنهم لم يعوا أو حتى يتساءلوا ما يعني مولّد؟..كل همّهم طعني في هويتي وَالسَّلاَمِ!.**

أنا، إذا مولّد.. في اليمن ربما البَعْض من اليمنيين لا يعلم ما تعني "مولّد"، وربما البَعْض الآخر سيسخر مني ويهزأ باعتبار أنه لا فَرَقْ بين المولّد وبين الحبشي.. الكل يجتمعان في سلّة سوداء واحدة!!

أنا إذا مولّد .. في أثيوبيا ربما البعض من الأثيوبيين لا يعلم ما تعني "كلس" ترجمة لـ"مولّد" وربما البعض الآخر سيعلن عن دهشته مستغرباً باعتبار أنه لا فرق بين المولّد واليمني ..الكل يجتمعان في سلّة بيضاء واحدة!!

: هل نحن أمام صراع ألوان؟

لا أدري..لكن ما أدريه أن المولّد..مخلوق نصف شبحي يسمّى في تعاريف الفلاسفة "إنسان" وفي تعاريف الجهلة "نصف إنسان"من أب يمني وأم افريقية، وهي صفة لازمته طيلة الخمسين عاماً الماضية، والموصوف عاش حياته مشتتاً بين هويتين كلاهما لا تعترفان به!.

غالباً، عندما تتلاقح الحيوانات المنوية للحزن وتستقر في رحم الندم تُنتج لغة جديدة من مثل:

: آه..لو كَانَتْ أمي فرنسية أو أمريكية، لكّنوا لي احتراماً وخوفاً مبالغاً فيهما؛ لكنّني ولتجربتي المرّة كـ(مولّد) لن ألقِّح الحزن بالندم بل سأترك الحزن "الذكر" يبحث عن حزن "أنثى" وعلى غير العادة في تلقيح بَعْضه البَعْض ليُنتج الآتي

: ببساطة، أحب أمي الحبشية السوداء، وببساطة أكثر أحب أبي اليمني الأبيض!

أنا..مولّد..جسدي موزع بين لونين..بياض والدي اليمني وسواد أمي الحبشية..لساني يهضم لغتين، الأُولَى تنطق بلغة حمير والثانية تنطق بلغة سليمان، بسبب لون جسدي ألقى الكثير من المعاناة وبسبب لساني أشعر بأنني مميز بميزة، ليس لها أي معنى في عالمنا التافه هذا!

في اليمن..البَعْض يسخر من لون وجهي المائل للسواد كما لون وجه أمي، وذَلِكَ من أجل تفريغ إنائه الَّذِي يشبه القيء، والبَعْض يحقّر من هويّتي باعتباري بلا هوية، والبَعْض الآخر يتمنى تفجير وجهي بقنبلة، لكنّ نصفي اليمني يمنعه من ذَلِكَ!!

أمّا في أثيوبيا فالبَعْض يسخر من هيكل جسدي الشبيه بهيكل جسد والدي اليمني، والبَعْض يحقّر من هويّتي باعتباري بلا هوية محددة المعالم والملامح، والبَعْض الآخر يتمنى تفجير وجهي بصاروخ، لكنّ نصفي الأثيوبي يمنعه من ذَلِكَ!!

مَاذَا يعني أن أكون واقعاً بين النصفين..نصف يمني يتجسد في قطرة منيّ والدي القاطن أعالي جبال مدينة (إب) اليمنية منذ آلاف السنين ونصف أثيوبي يتجسد في رحم والدتي.؟

يعني ألا تعني لكم حكايتي شيئاً؟

كان أبي في بداية شبابه مزارعاً مجتهداً في قريته الواقعة أطراف مدينةإب. لكنّ موت والده- أي جدي- أدى إلى ميلاد مشاكل بين الإخوة على الإرث ، إذ ادّعى أخاه الكبير حمود أنّه خطط لقتله وأثبت ذَلِكَ بالحجة والدليل؛ فما كان من شيخ القرية سوى الحكم - نزولاً عند رغبة عمي حمود ووالدي - بإعطاء نصيبه في الميراث مالاً -أي نقداً- وإخراجه من القرية.

الحياة جملة من الرغبات وقد حقق عمي حمود رغبته في الاستئثار بالأراض الزراعية والبيوت بتطبيق مبدأ لا ميراث للمرأة كأخواته أو نصيب عمي الأوسط بلال وذلك بإطعامه مما سبب له الجنون، وإبعاد والدي بخطّة محكمة وأخيراً ..لا حق لصغير كعمي فهد.

وبالفعل خرج والدي من القرية تمام الساعة الخامسة فجراً وتحديداً يوم 24 - 9 - 1974م حاملاً قميصاً خفيفاً وسجّادة ممزقة ومالاً وكيساً- كان اليمنيون يستخدمونه للنوم هربا من لسعات القمل والحشرات ولدغات الملاريا- إنه بمثابة غرفة نوم متنقلة آمنة ورخيصة، وخرقة مليئة بوريقات القات1، والكثير من نصائح مبخوت الملقّب من

[1]: **القات شجرة دائمة الخضرة يتعاطاها اليمنيون بكثرة، وهي تمثل ظاهرة اقتصادية واجتماعية خطيرة،حيث يستهلك بعض اليمنيين الكثيرمن دخلهم لشراء أوراق القات**

قبل بَعْض القرويين بـ(ستارلين المجنون) ومن قبل البَعْض الآخر بالحكيم، وغادر القرية..كان آخر لقاء لوالدي بستارلين عند مخرج القرية، وهو اللقاء الأهم في حياته.

: مغادر؟.

: ليس ثمة أمل.

: الأمل يحيى ويزدهر مع التنقل الدائم من مكان لآخر ومن أرض لأخرى.

: لم أستطبه مطلقاً.

: ما دمت لم تستطبه فالأمل حي..مَاذَا قررت؟

: قررت بدء حياتي..بعيداً هناك في صنعاء.

: سفرك مع والدك أيام علاجه في صنعاء فتح شهيتك لهذه المدينة..قرار حكيم، لكنّ الأحكم أن تختار بلداً أبعد من صنعاء.

: كما أنت؟

: أنا بدأت في عدن..عملت بحاراً وخلال عشر سنوات جبت الكثير من الدول.. قدمي المتشققة هذه وطئت رمال شواطئ آسيا وأفريقيا، وقلبي تعلّق بالمئات من النساء..واجهت الكثير من المخاطر والمحن..لا

---

**لمضغ هذه الأوراق. وهذه العملية تسمّى التخزين،حيث يضع المخزّن كمية من أوراق القات في فمه ليلوكها تم يمتص مكونات القات المخدّرة التي تحمل عنصرين أساسيين في تخديرالجسم الكاتين ونوالكاتينين..**

أرجو أن تواجه ما واجهته، بل أنصحك بأن تختار بلداً أبعد من صنعاء.

: تنصحني بأن أبتعد أكثر مثلك، وأنت لم تجن شيئاً غير المخاطر.

: مادياً لم أجنِ شيئاً والسبب عدم استقراري في مدينة معينة، لكنّ معرفياً تعلمت الكثير من كل مجتمع نزلت على شواطئه، وفهمت ما لا يقدر على فهمه سوى من ترحَّل مثلي..المعرفة لا تولد من أوراق الكتب فقط، بل من عيش وقائع الكتب!

: المعرفة أخذتها منك طيلة سنوات مرت..قدم لي أهم حِكْمَةَ أتوكأ بها في سفري.

: إذا أردت الْحِكْمَةَ فتعلمها من الترحال الدائم، وليس من متزِّحل.

: لماذا؟

: لأن الحصول عليها يتطلب أن تدرك معنى تمسك كل شعب بعاداته وتقاليده..تحتاج للاختلاط بالكثير من المجتمعات، ولكي تحقق ذلك ستواجه الكثير من المخاطر.

: أريد أن أجني المال ومرافقتي لأبي إلى صنعاء فتحت لي الأبواب لجني المال.

: لكي تكون نفسك مطمئنة فاكسب الحكمة قبل المال لأن اكتساب المال قبل الحكمة سيزيدك ثراءً وقلقاً ..أما اكتساب الحكمة قبل المال فسيزيدك ثراءً أكثر قيمة من المال، لكن من دون قلق ..إذا أردت القلق فخذه من الاستقرار في مدينة واحدة وثقافة واحدة..

: إذاً..طيّب نفسي في آخر نصيحة تقدمها لي الآن.

: الإنسَان مثل شجرة القات، كلما نبتت لك أوراق قطفها الآخرون واستمتعوا بها..فإذا تمتّع بها إنسان تدمّرت الأرض، وإذا تمتّع بها حيوان بُنيت الأرض..عندما تصير عارياً من الأوراق فلا تغلق الباب على نفسك في الظلام، بل أتح المجال للشمس لأن تدفئ روحك.

: وكيف يمكن ذَلِكَ؟

: بالمحبة..راهن على المحبة واستند على قدرتها السحرية في اجتذاب أعتى القلوب قساوة وأكثرها صلابة..اعمل بها..انطق بمفردتها..اجعلها رفيقة دربك ورحالك وزادك..سيبدو تأثيرها في البداية منعدماً، ولكنّه سيظهر في المستقبل مثل إعصار...فلا شيء سينقذك من المخاطر غيرها.

: كلام كبير ولكنّه لا يليق بالمناسبة.

: مناسبة!

: مناسبة أن أخي الكبير نزع من قلبي كل المحبة واستبدلها بكره شديد له وللأرض..كرهت القرية التي أنكرت حقي في الميراث ..كرهت ناسها الذين وقفوا إلى جانب باطل أخي..كرهت كل شيء..لم يعد في قلبي ذرة حب لأحد.

: الحب شيء غامض، غموضه يدفعك للكره..عليك أن تكتشف الحب ولو كلّفك ما تطمح إليه..فإن وصلت إليه ملكته وإن ملكته مكّنك من التغلب على كل الصعاب..هو من سيحقق ما تطمح لتحقيقه من دون ردات الفعل المتمثلة في تأنيب الضمير، المحبة لا تُشترى إلاّ بالمحبة..إثبت لهم حبك...هيا انطلق وتذكر أن المال لن

يملّكك الحب أو يحقق لك مطمعاً مادام لم يرتبط بتحركك لاكتشاف الغموض الَّذِي يلف الطريق إليه وتملّكه.

: وما الفرق؟

: القلب بقالة رأس ماله كيلو منوع موزع بالتساوي بين الطموحات والمحبة والمطامع والآمال..وبيعك مطامعك فقط، يعني دخولها في دائرة الحركة والتجدد دوناً عن بقية الأصناف وعدم بيعك لبقية الأصناف يعني جمودها وبالتالي خروجها من دائرة الحركة والتجدد..عليك أن تبيع كل الأصناف، لينعكس ذلك التجدد فيك.. إن بيعك للمطمع فقط يعني إفراغا لربع الكيلو، إذا لم تستوفه فوراً بمطمع آخر سيستوفيه الفراغ بالقلق الذي سينزرع في كيانك ويتغلغل في أحشائك، لكنّ تحقيقه بالحب لن يترك فراغا للقلق لكي يعبث بك.

: مع أنني لم أفهم كلامك الأخير إلاّ أني أريد أن أودعك..أأقول مع السَّلاَمِة يا مبخوت أم مع السَّلاَمِة يا ستارلين؟

: ستارلين طبعاً.

: ولكنها تسمية يناديك بها القرويون بصفتك مجنوناً وهذه تسمية تجعلني أتردد في العمل بنصائحك.

: ستارلين..هذا الاسم الَّذِي سأفضّل مناداتي به ولو ربطوه بالجنون.

: أنا على مشارف المغادرة وقد لا أعود.

: نفس ما قلته أنت، قلته أنا أيضا، ولكنني كما ترى عدت.

: مغادرتك القرية باختيارك، لكن مغادرتي منها طرد مؤدَّب..لذلك سأسألك ذلك السؤال الذي لم تجب لي عنه سابقا.

: ما هو؟

: تمسكك بستارلين رغم أنه صار في القرية والقرى المجاورة لها مرادفاً لكلمة الجنون وكأنه سر من أسرار الكون.

: آه..ستارلين له حكاية طويلة لم أخبرها لأحد، وسأظل كذلك حتى يواري التراب قبري.

: لماذا..؟

: لأنني بكشفي السبب سأخسر لذة الاستمتاع بالألم المصاحب للحظة التسمية.

: لذة..هل ثمة متعة في الألم ..متعة في التمسك بكلمة هي شتيمة أصلاً!؟

: بعض الشتائم نعمة ومن لا يدرك ذلك فعليه أن ينظر للدنيا من خلالي..هيا انطلق..

ومع كل خطوة لابتعاد والدي عنه كانت دموع ستارلين تتساقط

لقد أحس والدي بأن ثمةصوتا يصدر نتيجة تساقط الدموع، لكن تزامن وقع خطى أقدامه بسقوط الدمعة ظلله!

لقد أحبها مبخوت حبا من ذلك النوع لا تملك لغة أيّا كانت قدراً من التعابير السحرية لتفسيرها في عالمنا الواقعي جداً..عشقها منذ أول خطوة خطى بها نحو شواطئ أندونسيا..تعلّق بأول كلمة نطقتها رغم أنها شتيمة صادرة عن غيرها تعلق الطفل بحلمة أمه.

ترك عمله كبحار من أجلها، ولكنه بعد ثلاثة أشهر أُجبر على هجرها..كان مديناً لمالك السفينة الهولندي والذي يعمل فيها كبحار.. أعاده المالك بقوة قانون المحتل الهولندي لأندونسيا إلى السفينة مكبَّلاً..هجرها وهي حبلى ..سيعمل لدى الهولندي حتى يتم سداد ديونه ويعود إليها.

ولكنه لم يعد.....!!

لقد عاد لبلده اليمن ليعيش غريباً في قريته، كما يعتقد أن له ابنا يعيش في أندونسيا غريباً.!

* * *

**اسمي صادق..**

**ويلقبني الناس في صنعاء بـ(المولّد) لأني من أم حبشية وأب يمني .. هذا اللقب الذي يدفعني للهروب من المجرة لولا العجز يدفعني لإكمال الحكاية..**

وانطلق والدي فجراً إلى صنعاء..المدينة التي بهرته بأضوائها وسياراتها وطرقها ومساكنها عندما زارها عدة مرات برفقة أبيه قبل عدة سنوات.

هذه المرة..لم يسافر والدي إلى صنعاء بصحبة أبيه لغرض علاج جدي الممراض، بل بصحبة مال يمكن أن يبدأ به مشروع حياته وأية حياة.

مدينة (ذمار) ..وصلها والدي وقت الغداء..تناول غداءه في أحد مطاعمها..(معبر)..وصلها مع أذان صلاة العصر..توقفت السيارة

جانب الطريق فصلى مع الركاب صلاة العصر وبدأ بحشو وريقات القات الملعونة في فمه..نقطة صنعاء..(حزيز)..(بيرعبيد)..(باب اليمن)..دخل صنعاء تمام الساعة الخامسة عصراً ليوم 24 وشهر 9 لعام 1974م، وبلغته يوم 18 لشهر 9 من عام 1394 هجرية.

إنه نفس العام والشهر واليوم بالضبط الَّذِي عرفت فيه اليمن البث التليفزيوني، فقد قامت القيادة العسكرية التي تدير البلاد بافتتاح محطة وسّعت من بثها تدريجياً ليغطى إرسالها جميع مساحات أراضي اليمن بساعات بث تمتد إلى سبع عشرة ساعة يومياً.

ما الجدوى من ذكر ارتباط يوم وصول والدي صنعاء بنفس يوم انبهار سكان صنعاء بالبث التليفزيوني؟

كـ(مولّد) لا أحمل إجابة؟

المحلات في حركة دائمة..أموال تخرج وتدخل..سيارات بموديلات مختلفةِ.بَعْضها صنع بين الأعوام 1960و1965م وبَعْضها موديل((((الكلام ناقص هنا يحتاج تكمله))))

أحدث..فنادق..بيوت..مطاعم..وإلى فندق الملكة بلقيس والواقع بالقرب من بوابة باب اليمن توجه..أقام في إحدى غرفها..أبهره التليفزيون الَّذِي في غرفته..الأغاني اليمنية التراثية..برامج الأطفال..أذان المغرب..صلّى المغرب والعشاء..واصل تعاطي القات، حتى ختم التليفزيون برامجه تمام الساعة العاشرة والنصف مساءً بقراءة آيات من القرآن الكريم.

فكر..مَاذَا سيفعل؟..من أَيْنَ سيبدأ؟..لن ينهزم أو يسقط أو يعود خاسراً خائباً وذليلاً كما ظن أن أخاه تمناه له ويطلب صفحه وصفح من اقتنعوا بحجّته..سينجح وسيصير أغناهم وأكثرهم ثراءً..إن نصائح الحكيم ستارلين تزيده بهجة وثقة.

تساءل..هل هو حقاً حكيم القرية..إنه يقول كلاماً كبيراً وجميلاً وجاذباً للقلب ولكنّه جنوني مقارنة بكلام القرويين..البعض يرى أنه عاد من غربته وهو مسحور، من قبل إحدى جنيات الشواطئ التي سرقت كل ما جمعه، والبعض يرى أنه نموذج للمهاجر المفلس الذي عاد على غير عودة المهاجرين الحاملين للأموال والهدايا حاملا النصائح والحكم! .. لا أصدق أهل قريتي عندما يقارنون فكر العالم كله بفكرهم هم من منطلق أن كل العالم يفكر بطريقة واحدة..لا..لا بد أن ثمة اختلافات والدليل صنعاء.

اقتطع نصف ساعة من عمره الَّذِي يغادر جسده بلا معنى وهو كمسمار معلَّق في نافذة الغرفة المطلة بطابق على باب اليمن..حركة البيع والشراء بدأت تخف..قات..خبز..ملابس محلية رديئة الصنع..خناجر..أحذية ..أطفأت صنعاء مصابيحها ومحلاتها تمام الساعة الـ11 مساءً..يا لها من مدينة تسكن شوارعها الكلاب قبل منتصف الليل..مدينة تموت قبل منتصف الليل لتحيا فيها مخلوقات أخرى..إنها أفضل حالاً من قريته التي تموت بعد صلاة المغرب، لتحيا فيها الطواهش والجن!.

لا حركة..لا أحد..أشعره الجوع بأن لوقته معنى..نزل إلى موظف الاستقبال.

: أريد عشاء.. أَيْنَ أجده؟

: أنت تأخرت..المطاعم كلها مغلقة، لكنّ أنا سأتعشى الآن..اتفضل كل معي.

ويدخل غرفة الاستقبال..يأكل معه..كان في الغرفة أغراض كثيرة.

: ما هذا؟

: أمانات الزبائن..يتركها النزلاء عندنا بمقابل.

: بفلوس، ولماذا لا يأخذوها معهم للغرف ويوفروا؟

: لا، بَعْضها كبير وبَعْضها يخافون ضياعه وبَعْضها ممنوع يبقى في الغرف.

يلاحظ علب زجاجية شفافة متوسطة بها عسل.

: هذا عسل؟

: هذا عسل أثيوبي..الكيلو الواحد بخمسة ريالات.

: الله..العسل علاج وشفاء.

: وخاصة العسل الأثيوبي..تصور أن صاحب العسل هذا يسافر في الشهر مرة إلى أديس أبابا ويحضر معه مائتي كيلو عسل ويبيعها بألف ريال..يشتروها الأغنياء بسرعة.

: ألف ريال اشتري بها في القرية قطعة أرض زراعية كبيرة.

:ليست الألف كلها ربحاً له.. اخصم حق طلوعه من مدينة (تعز) إلى العاصمة صنعاء واخصم حق قيمة التذكرة حق الطيارة "الداكوتا"

واخصم قيمة ما ينزل في الفندق عندنا هنا ثلاثة أيام حتى يسافر بالطيارة ومصاريف في أثيوبيا ثلاثة أيام وقيمة العسل.

: هذه خسارة!!

: لا خسارة ولا شيء..ولو كَانَتْ خسارة ما كان مستمراً يتنقل بين (تعز) و(صنعاء) و(أديس أبابا) سنين طويلة..صرنا أنا وهو أصدقاء من كثرة ما يقيم عندنا ترانزيت..يومين أو ثلاثة أيام في الشهر قبل ما يسافر (أديس أبابا)، وعندما يرجع منها يوم إذا كان وصله صنعاء متأخراً.. المهم ربحه ربما يصل لمائتي ريال في النقلة الواحدة..إنه ربح صاف سهل ومريح..يوم سعدي يوم يقيم عندنا في الفندق..يكرمني بفلوس وعسل.

: وأَيْنَ صاحبها الآن؟

: مقيم في الغرفة (104) يمين غرفتك (106) ..إذا أردت شراء العسل منه فأنصحك انتظاره صباح غد في صالة الفندق إذ سيسافر .

يتوقف عن تناول طعام العشاء حامداً شاكراً.

: أطعمك الله من طعام الجنة..سأرجع الغرفة.

: عدم حاجتك للعسل وطريقة تناولك للطعام لا توحي بأنك مريض!

: أعوذ بالله..لا، أنا لست مريضاً.

:سبحان الله أول مرة أشاهد نزيلاً قدم من القرى وهو ليس مريضاً..صنعاء يا صاحبي لا تستقبل سوى المرضى..اعذرني.

: على الخير تصبح.

ظلت حكاية تجارة هذا الرجل تشغل باله..هل بالإمكان أن يصير مثله..يحقق الثراء ويتمكن من شراء قريته كلها..هل يتخلى عن مشروعه تحقيق الثراء في صنعاء وليس في مدينة أخرى، بحجّة أنه لم يحدد بالضبط ماهيته؟..لماذا يكره القرية التي صدّقت ادعاء أخيه الكبير بإقدامه على قتله وإدانته ومع ذَلِكَ طمح لتملكها..هل يغامر مثل الحكيم ليترحل ويكسب إلى جانب المال الْحِكْمَةَ؟..هل..هل..؟

مضت الساعات وهو يهل هل حتى هل الصباح..ويسمع طرقعات لإحد أبواب الغرف المجاورة..خرج ظاناً منه أن مصدرها غرفة التاجر صاحب تعز..وصدق ظنه.

بدا صاحب تعز كمضخة تضخ العطر في المكان

حيّاه وسأله ببساطة القروي أن يصير مثله والرزق على الله..وبرغم سخرية صاحب تعز من والدي القروي البسيط. فإنه أعطاه المفاتيح الأُولَى للاتجار بالعسل..من مثل الحصول على البطاقة الشخصية..جواز السفر..التذاكر..السفر..شراء العسل من أصحاب مزارع العسل في ضواحي أديس أبابا..بيعه في اليمن مختتماً طرقعة المفاتيح بسؤاله عن رأس ماله فأجاب والدي بأنه يحمل ما يقارب الـ1106 ريالات.

: هل أنت قادر على زيادة رأس مالك؟

ومنجذباً لرائحة عطر صاحب تعز الفاخرة.

:لا..

: المبلغ ليس كبيراً، لكنّ بمقدورك العمل في الحبشة جمَّالاً مثل الكثير من اليمنيين المهاجرين ولو لفترة حتى تجمع إلى جانب ما معك مبلغاً يقوّي تجارتك..جرّب حظّك، لكنّ انتبه تفسد سوقي..أنا سوقي مدينة تعز.

: لا، أنا سأبدأ برأسمالي هذا..سوقك (تعز) وأنا

سأختار لي مدينة أخرى..اتفقنا.

وقد شعر بخطر هذا القروي

: أتوكل بالله، لكنّ أنا ما لي علاقة إن خسرت أو وقع لك مكروه .. لست سوى ناصح.

: لا تقلق..مادمت أنت معي نسافر معاً ونرجع معاً.

والعطر الغالي يغطي الطارود.

: لا، أنا عدت منها قبل أيام.

: ومتى ستسافر حتى أستعد للسفر معك؟

: لا..لا يبدو أنني سأسافر لثلاثة أشهر قادمة..لديّ ظروف عائلية قاهرة..تمنعني ..سافر لوحدك.

ودّع صاحب تعز والدي ساخراً بينه وبين نفسه من عقليته التي تطمح للاتجار بالعسل..قروي بسيط..يعتقد أن بإمكانه أن يصير تاجراً مثلي هكذا ومن دون مؤهلات..كالمعرفة بلغة الأحباش ورأس المال الكبير و..و..إلخ..غبي..ومن دون ندم سأل نفسه..أليس من المفترض أن أبلغه بأن الحبشة تعاني من اضطرابات سياسية خطيرة قد تصل بها إلى شفير الحرب الأهلية وأنها سبب عدم عودتي إليها للأشهر

القادمة وذَلِكَ حتى تهدأ الأوضاع؟. أليس من العيب أن أنصحه بالاغتراب في دول الخليج والتي بدأت دولها تحقق نهضة تنموية لا متناهية وتستوعب الآلاف من العمال؟. ومن دون تردد سار إلى نهاية ما..

وعاد والدي إلى موظف الاستقبال..كنت حينها حيواناً منوياً أقبع مع ملايين الحيوانات المنوية في مفصل مظلم من مفاصل والدي. استفسر عن كيفية الحصول على الهوية والجواز والتذكرة فدلّه موظف الاستقبال، وبعد مرور خمسة أيام كان والدي جاهزاً للسفر إلى أثيوبيا..بدت فكرة تجارة العسل خارج حدود منطقه المتواضع وبعيدة بعد كوكب الزهرة عن كوكب المريخ عن الطريق الَّذِي خطّه أثناء دخوله صنعاء، لكنّ رغبته الشديدة في الحصول على المكسب السريع السهل كما صاحب تعز كَانَتْ تدفعه لصعود الطائرة المتجهة لأثيوبيا.

* * *

**اسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس هنا في صنعاء بـ(المولّد)..كوني من أم حبشية وأب يمني..وبالرغم من أن ذَلِكَ اللقب المقزز يجذبني لعالم اللا هوية، فإنني سأكمل الحكاية.**

ويصل والدي أديس أبابا.. فيرى بلاداً غريبة..لغة يجهلها..شوارع لا يعرفها..أناساً غرباء..عوامل وأسباباً تُشعر الإِنسَان بالضعف، لكنّه وعلى غير عادة البشر لم يشعر بالضعف..ضعف المهاجر الأميّ، بل شعر بقوة لا متناهية وكأنه شرب من إكسير القوة

حتى ارتوى..ترى من أَيْنَ استمد هذا المهاجر القوة؟. من الإكسير الذي لا يرد سوى في الأساطير والخرافات.

:لا.

لقد كان شعوره بالتفوق كونه أبيض البشرة هو إكسيره الذي شربه حتى ارتوى منذ طفولته في عملية تربوية معقدة تهدف إلى إنكار حق بقية البشر في الحياة والقوة رغم أنّه لا يرد سوى في الأساطير والخرافات.

قد تبدو الإجابة غامضة، لكن مجردأن لون بشرته أبيض في وسط من ذوي البشرة السوداء كان كفيلاً بأن يزرع فيه الشجاعة ويمكّنه من القوة.

لم تمنعه الآية القائلة بأن الناس سواسية وهو المتدين العامل بكتاب الله من الاتكاءوبشدّة على تفوقه كأبيض..لقد بدت مشاعره التي انجذبت بحب لهذه المدينة الخضراء مجرد فعل هامشي لنظرة متعالية انتهت بإسقاط نصائح الحكيم سهواً منه..ربما!

كان مزهواً بهذا اللون الَّذِي أظهره غريباً ومميزاً في بلد..يمكن أن يتعرف على المهاجرين اليمنيين فيه وما أكثرهم من خلال لون بشرتهم؛ وكنت أنا بدوري مزهواً بقبول إحدى الحيوانات المنوية حلولها محلي إذا صادف ووقعت المصادفة النادرة وتم اختياري من قبل رحم أنثى..لقد كَانَتْ رغبتي شديدة في الخلاص قبل أن أولد!!

النساء الباغيات ينتشرن في بَعْض شوارع أديس أبابا..لا..ليست أمي إحداهن بالتأكيد..!!

نساء ضحكن في وجهه وأخريات غمزن له علَّه يطلب إحداهن للمبيت معه، لكنّه فضّل مواصلة طريقه إلى فندق (عصب) والواقع في قلب العاصمة (أديس أبابا) وهو يردد المقاطع التي تحرّم الأفعال الحرام مثل الزنا والفحشاء (الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

أثناء ذَلِكَ مرت من أمامه سيارة (فلكسواجن) بداخلها أشخاص بإمكان ملامحهم القاسية إرعاب المجرة!

لقد استهل ضباط شيوعيون ساعة ويوم وشهر وعام تواجد والدي ثورتهم بالإطاحة بالملك يقودهم ضابط ماركسي، والليلة ألقى الضباط القبض على الملك واقتادوه في عربة الـ(فلكسواجن) التي مرت مسرعة من أمام والدي إلى قصره..

: هل سيعيد الضباط الملك الذي أطاحوا به إلى قصره؟

لا إجابة!!

دخل الفندق..كان ثمة ضوضاء وحركة مريبة لخروج متسرع لِبَعْض المقيمين في الفندق..دخلت شابة تحمل كيساً ملوناً وأغراضاً..يبدو كأنها هاربة!

ما أن رآها موظف الاستقبال حتى أظهر احتراماً يدل على قدسيتها..قالت الشّابة لموظف الاستقبال كلاماً لم يفهمه والدي..أظهر الموظف ارتيابه مما قالته وفتح الراديو واستمع باهتمام لما يصدر عن المذياع متجاهلاً والدي.

أقدم عدد من الضباط الشيوعيين تحت قيادة الضابط (منجستو هيلامريام) على إقصاء ملك أثيوبيا (هيلاسيلاسي)، وإعلان قيام دولة أثيوبيا الاشتراكية،وكشفت مصادر مقربة بأن الضباط المتعصبين لشعارات الشيوعية يقومون بتصفية أقاربه وحاشيته بحماسة ليست منقطعة النظير وحسب، بل منقطعة الفعل..بدأو العهد بتمشيط العاصمة بهدف التخلص من كل من له صلة قربى أو علاقة بالملك..لقد انتهى عصر الملوك المنحدرين من نسل الملكة بلقيس والنبي سليمان في أثيوبيا والَّذِي دام لأكثر من ثلاثة آلاف عام وبدأ عصر الشيوعية..

هذا ما بثّته الإذاعة، لكنّ ما بثّته القلوب ولم تستطع أسلحة الشيوعيين منعه، النحيب على هذا الملك العظيم.

بحدس اليمني فهم أن ثمة اضطرابات في البلاد وبطريقة إظهار موظف الاستقبال الاحترام للشابة والتي تشبه تلك الطريقة التي كان اليمنيون يقومون بها إبان حكم الأئمة خلص إلى نتيجة مفادها أن تلك الشّابة من أسرة ثرية أو قريبة من الملك وأنها هربت من جحيم ما؟

حمل موظف الاستقبال أغراض الشّابة ..أسرع إلى مخزن الفندق والشابة تتبعه ..خبأها في ركن مظلم من أركان المخزن..في تلك اللحظات كان (منجستو) قد شرّع مع رفاقه في دفن الملك أسفل أحد مراحيض القصر منهياً عصر الملوك المنحدرين من سلالة النبي سليمان والملكة اليمنية بلقيس.

فعلاً..الكل يُدفن في النهاية، كل بطريقته في الظلام!.

عاد وهو يترقب، ومع عودته المترقبة لغرفة الاستقبال تناهى إلى سمعه(ونان) سيارة شرطة تقترب..دخل للفندق ثلاثة ضباط وهم يتفحصون المكان.

ما إن أسكت سائق السيارة (ونان) سيارة الشرطة حتى انهال الضباط الثلاثة بلطم وركل الموظف.

وبعدها دار حوار بينهم فهم والدي من خلال حركاتهم وإشاراتهم ان اسم المفعول به(وندرسا)وأن الفاعلين يبحثون عن شخص من ربط الوقائع يبدو أنها تلك الشّابة وأن الركلات واللطمات لم تؤد إلى اعتراف (وندرسا) مما اضطرهم لتهديده ومغادرة الفندق على صوت الونان المخيف.

ربّت والدي على ظهر وندرسا، ومسح جروح وجهه بجزء من قميصه المتسخ.

: وندرسا!

التفت وندرسا إلى والدي مستغرباً من قدرة العربي على نطق كلمة أثيوبية وأشار له بالشكر.

أخرج وندرسا من لوحة المفاتيح مفتاح غرفة والدي وأعطاه إيّاه..رقم الغرفة (106)، وعندما هم بايصاله للغرفة خرجت الشّابة من المخزن في التقاء كاد ينتهي بصدام بشري..حوار لم يفهمه والدي كشف له أن وندرسا نجح في إخفائها عن الضباط الذين كانوا ينوون قتلها وتقديم دمها قربانا لمبادئ الشيوعية.

وما إن ينتهي وندرسا من التعبير عن ولائه لها ولو كلفه حياته، يقترب (ونان) سيارة الشرطة..يهلعان..يخطف الشّابة ووالدي ويصعد بهما إلى الغرفة (106) ويشير لوالدي بأن يُخفي الشّابة عن الأنظار معتقداً أن الضباط إذا بحثوا عنها في غرف الفندق كله فإنهم لن يبحثوا عنها في غرفة أجبني.

ومع عودة وندرسا إلى الاستقبال كان الضباط الثلاثة واقفين وبرفقتهم شاب أصلع..يبدو من صلعته التي تشبه – من شدة التماعها– نجما لمن يقطن في نجم آخر، إنه من الساكنين قرب الفندق قد رأى باب الفندق وهو يبتلع الشّابة ووشى بذَلِكَ للضباط.

قطعوا بآلة حادة إبهاما وندرسا ..لم تؤد رؤيته لإبهاميه مقطوعتين وغارقتين في الدم إلى اعتراف لسانه بمكان الشّابة.. مزقوا بناطيلهم كاشفين عن مؤخرات مناضلين وتبرزوا عليه.. لم يفد اختلاط برازهم بدمه في الاعتراف فبحثوا في أرجاء الفندق.

عثر أحد الضباط النشطين في المخزن على الكيس والأغراض الخاصة بالشّابة..كَانَتْ الأغراض تحوي ملابس وأموالاً ..وقبل أن يطَّلع الضابط المسئول عما عثر عليه النشيط كان وندرسا مقتولاً وأديس أبابا تعبق برائحة برازهم باستثناء غرفة والدي المغلقة بإحكام.

شرّع الضباط في البحث عن الشّابة في الفندق.

وهم يفتشون في الغرف..غرفة..غرفة، كان والدي مرتاباً ليس لإخفائه هذه الشّابة، بل لأن في غرفته امرأة وهو القروي الَّذِي تربّى كما أبناء جيله بينه وبين الجنس الآخر مسافة تزيد على مليون كيلو

متر ضوئي على الأقل معنوياً..كَانَتْ الشّابة صامتة ومناخ الغرفة يوحي للمشككين بأن ثمة علاقة ستعلق في ذاكرتيهما..الخوف غلب الشك في مباراة حسمتها أصوات الضباط وهم يخرجون من الغرفة (104) بعد أن جردوها مما يسترها، ويستعدون للبحث في الغرفة (105) ومن ثم في غرفة والدي (106).

ارتبكت كعادة كل امرأة قديمة..أشارت له بأنهم الضباط..بأنها خائفة..حميّة والدي القروي البسيط تجاه عادة تغطية النساء من الرأس حتى القدم في قريته أنبتت في رأسه فكرة قديمة تتمثل في أن يُفرغ الكيس الَّذِي يستخدمه للنوم من قميصه الممزق وسجادته ويحشر الشّابة فيها..نفّذ الفكرة وخبأها أسفل السرير..لا تستغربوا فوالدي اعتاد في قريته على استخدام الكيس كمرقد كغيره من الآلاف من اليمنيين ممن يستخدمون الأكياس للنوم هرباً من لسعات القمل والحشرات.

طرق الضباط غرفة والدي، وبرغم حرجهم من كون النزيل عربياً فإنهم تفحصوا الغرفة بنظرات مريبة.

لم تكن ثمة لغة مشتركة بينهما..ولم تتنطع لدى أحد الضباط مجرد فكيرة صغيرة بأنها قد تكون محشورة في كيس ومختبئة تحت السرير. قرروا لا معقولية قيام هذا العربي بإخفاء الشّابة، وأَيْنَ وقد تفحصوا الغرفة..أشاروا إلى اعتذارهم بنظرات مخيفة وغادروا.

نهار اليوم الثاني كَانَتْ الشّابة برفقة والدي في مدينة العسل يقضيان شهر العسل!!

لقد انحرف والدي عن وجهته صوب مدن العسل وتجارتها، وذَلِكَ بأن تزوّج تلك الشّابة الجميلة، التي تُخفي أسراراً خطيرة كعادة هذا العالم الخطير.

إنه الحب..شيء غامض علينا أن نكتشفه ومن أول نظرة، فهو من يقودنا إلى طريق غير ما رسمنا في حيواتنا..الحب ولا شيء غير الحب ما كان يفتقده والدي، ولكنّه لم يكن يملك اللغة لوصفه..تذكر كلام مبخوت أو ستارلين..الحب شيء غامض عليك أن تكتشفه ولو كلفك ما تطمح..فإن وصلت إليه ملكته، وإن ملكته تمكّنت من التغلّب على كل الصعاب.. وها قد اكتشفه!

**اسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس في صنعاء بـ(المولّد) لأني من أم حبشية وأب يمني، وبرغم أن المولّدين، وخاصّة من كَانَتْ أمه أفريقية ووالده عربي بلا وطن، فإنني سأواصل حكايتي..**

الحب ليس وَلَهٌ وتنهيدات واشتياق فقط، بل له فوائد حياتية، ظاهرية وباطنية، فالظاهرية منها ابتهاجه بقرار الشيوعيين حصر الوطن للمواطن، لأنه تزوج بمواطنة أثيوبية، قد تمكِّنه من بدء تجارته من دون عوائق الإقامة، وإن خسر كما ظن صاحب تعز يستطيع العمل جمَّالاً من دون عوائق الشيوعيين، والشّابة أيضا ابتهجت،لأنها ستكون تحت حماية أجنبي وفي مأمن من الاعتقال والذبح وقد تتمكن من مغادرة أثيوبيا؛ وانسحاباً قرر الاثنان أن أكون ولدهما البكر والوحيد في آن

معاً.. أمّا الفوائد الباطنية للحب، فلا يدرك أبعادها أحد، حتّى من يقع في شركه!

يا إلهي..لقد خرجت من ظهر أبي اليمني وانطلقت مع ملايين الحيوانات المنوية مطمئناً للاتفاقات التي عقدتها مع عدد كبير من الحيوانات المنوية، بأن المصادفة النادرة لن تقع، ولكنّها وقعت واستقريت في رحم أمي الأثيوبية وبقي على موعد خروجي من بطنها تسعة أشهر.

ومَاذَا بعد...؟

شعور صادم أن تنتقل، وأنت ما زلت نطفة محمياً في ظهر والدك إلى رحم لم يتوقعه أحد في المجرة كلها!!

لكنّ هذا ما حدث وكفى..

قرر والدي أن ينشط في تجارته وتعلّم لغة الأحباش، وبالفعل اشترى بمعونة أمي – التي باعت الأساور الذهبية الَّتي كانت تلف معصمها مقابل (1106) بر أثيوبي–مائتي كيلو عسل أصلي وأخذها عائداً إلى اليمن..لقد كَانَتْ حياتها على المحك، فلقد تعرض جميع أهلها للقتل على يد الشيوعيين.

كيف تمكنت من مغادرة مطار أديس أبابا؟

سؤال لن يجيب عنه بَعْض العاملين في المطار إلاّ بعد رحيل الشيوعيين بنصف قرن!

في اليمن وخلال أسبوع تمكّن وبمساعدة موظف الاستقبال في فندق الملكة أروى من استئجار بيت شعبي صغير في باب اليمن له ولزوجته،

وبيع كمية العسل لعدد من أثرياء صنعاء القديمة، ولأن المردود كان كبيراً ومغرياً لرحلة أخرى فقد قرر العودة إلى أثيوبيا..

بدا مطمعه بالعودة إلى القرية، ليشتريها وليتمكّن من ملكها يذوب، مع انحراف طموحه عن مساره وتغيّر سير خطوط حلمه..لقد صار متزوجاً بزوجة غير ما توقع، والأدهى بزوجة تخفي أسراراً خطيرة، وتاجراً في مجال تجاري لم يتوقعه..مجال يخفي أسراراً أخرى خطيرة من شأن حدّة ذكائه فقط أن تجعله يجني الملايين منها..

لم يزد عمري في بطن أمي على شهر حينما أقفل والدي باب البيت على أمي مدة ثلاثة أيام قضاها في أديس أبابا يشتري الدفعة الثانية من العسل!!.

أنا مولّد بحسبهم وبحسب اللغة هجين..صدقوني أنا كذلك..والدليل أن أمي أثيوبية وأبي يمني.

مَاذَا فعلت بي يا أبي..لمِاذَا قسمتني إلى نصفين، النصف الأول يعاني من ضيق أفق المجتمع، والنصف الثاني يعاني من مجتمع عنصري ومناطقي إلى حد لا يطاق..أنا أحب أمي الأثيوبية السوداء..أحبها حباًتعجز اللغات عن وصفه..حب لا أملك سحر اللغة لتخطيطه، لكنّ الصبية في الحي يقتلون في داخلي حبي لوطني اليمن..إنهم بمحاولاتهم الدنيئة يريدون عزلي عن المجتمع بحجّة أن أمي حبشية، بل في بَعْض الأحيان تشكيكهم في أني يمني ابن يمني، يمنعون حقي في اللعب والحياة.

أنا لا أستحق كل ذَلِكَ..أنا لا أستحق ما أرزح تحت نيره..ليست لديَّ طموحات كبيرة..طموحاتي متواضعة كأي صبي صغير..يود أن يلعب مع أقرانه في الحي دون أن ينهالوا عليه ضرباً بحجّة أنّه نصف يمني ومولّد..يدرس مع أقرانه دون أن يشيروا إلى لونه المائل للسواد..ينتقصون من حقه في التعلم بطرق مثل تمزيق دفاتره وكتبه.

هل سيأتي يوم ويشعرني اليأس بنعمة الانتماء للوطن، أم أن نعمة الانتماء في حد ذاتها يأس آخر؟

سؤال وجهته لجثمان أمي المدد..لقد ماتت أمي وعمري أحد عشر عاماً وستة أيام..خلال فترة حياتها كبرت تجارة العسل لدى والدي..كانت مثل بالونة كلما نفخها كبرت وتوسعت مستوعبة كل مال يوضع فيها، وتمكّن من شراء بيت في قلب صنعاء وأحيا حلمه القديم بامتلاك القرية بشراء جزء من أراضيها وعدد من بيوتها، وصار بَعْض القرويين يحابونه ويتملقونه..

لقد حقق أبي مطمعاًخلاف ما توقع، وتمكّن من أن يجعل أهل قريته يتملقونه أحيانا بسبب وأحيانا بدون سبب!!..كانوا أيامها يعاملونني كقريب لهم ويشعروني بأني منهم وإليهم..مستعدون للدفاع عني حتى الموت، ولكنّ الحقيقة أنهم كانوا يتملقونه عبري..

كررت سؤال جثمان أمي

: هل سيأتي يوم ويشعرني اليأس بنعمة الانتماء للوطن؟

لم يجب جثمان أمي– الَّذِي فقد نعمة دفنه في موطنه بعد أن هجر أثيوبيا– عن سؤالي..فتوجهت بعد انتهاء أيام العزاء إلى أبي..في

تلك الأيام بدا أبي حزيناً وعيناه مصفرتين ويعاني من كآبة شديدة، وازدادت حالته سوءاً بعد انفضاض المعزين وبقائنا وحيدين في البيت.. لقد اكتشف في غمرة انشغاله بنفخ بالونة المال،أن وعيه هضم جيدا كل نصائح الحكيم، لكنّ لاوعيه الناقم لم يعمل بواحدة منها.. لقد انفجرت البالونة وكفى!!

وصل إذاً إلى مبتغاه وامتلك جُلَّ القرية وناسها وشعر بارتياح عظيم، وفي نفس الوقت بفراغ كبير..مَاذَا سيفعل بعد ذَلِكَ..كان السبب لتحقيقه كل ما حققه، هو كرهه الشديد للقرية وناسها ورغبته في امتلاكها وتركيع ناسها وقد حقق رغبته..ومَاذَا بعد؟. فراغ الهدف أشعره بحزن عظيم، فالإنسَان عندما يحقق أهم أهدافه، فإنه إنما يعلن عن بداية موته، وزاده موت والدتي حزناً على حزن..بكى عندما تذكر كلاما للحكيم، وبكى أكثر عندما أيقن هامشية ما كان يحافظ عليه، وأهمية ما لم يكن يهتم به!

اقتربت من غرفته مساء تلك الليلة..كان ممدداً..يُخفي بكاءه برفع صوت المذيع الَّذِي يردد إذاعة (البي بي سي) لندن..نشرة الأخبار..معكم ماجد سرحان..إلخ.

دون طرق الباب دخلت..ظلام الغرفة منعني من رؤية دموعه وهي تنهمر..

: أبي.

لا رد.

: أبي.

لا رد.

أخفى دموعه خلف ابتسامة مصطنعة وأضاء الغرفة واستمع لشكواي.

: أبي..أولاد الحارة يهددوني دائماً..بعضهم ينعتني بالمولّد..يحقّرونني بحجة لوني المائل للسواد وأن أمي حبشية.. وبعض الأولاد يجتمعون وينهالون عليّ شتما وضربا..جبناء يأتون كمجموعة وليس أفرادا..في المدرسة بَعْض الطلاب يمارسون ضدي أحقر الممارسات.. أحدهم يسرق طعامي بحجة أني مولّد والمولّد لا يحق له الأكل، وآخر يمزّق دفاتري..كنت في السابق أشكوهم لأمي وكانت تغسل قلبي بالحب..تغرقني بالثقة بمسح شعري ..موت أمي كشف لي كم أنا عاجز عن مواجهة العالم بدونها..أنا لا أكرههم، ولكنّني صرت أكره نفسي..

لم أكد أكمل انفجاري حتى قاطعني والدي

: يا ولدي في قريتي كان ثمة رجل حكيم اسمه الحقيقي (مبخوت) واسمه الذي يفضله (ستارلين) جاب المدن والشواطئ، وعاد محمَّلاً بالحكمة والأمل، اللذين من شأنهما إحياء قريتنا الرازحة تحت نير تخلف اجتماعي واقتصادي رهيب..جاهد عدة سنوات لإنقاذ القرية وناسها بالحكمة، باعتبارها العتبة الأولى التي ستؤدي إلى أن يستفيدوا من ثروات القرية الحقيقية المدفونة، كنوز لا تنضب، ولكّنه فشل فشلا ذريعا وأضف على ذلك نظر له البعض كمجنون ومسحور..مجنون يسعى للتوفيق بين أهل القرية المختلفين منذ مئات السنين على ملكية جبالها وجمعهم على كلمة واحدة لاستخراج الكنوز الكامنة في جبالها من

أحجار البناء والجير والاستفادة من الرمال البيضاء في صناعة أفخر أنواع الزجاج والكريستال في العالم.. بناء بيوت العسل ..إقامة المشروعات الصغيرة والكثير الكثير.ومسحور من قبل جنية لأنه أراد أن نفهم أن الغول الذي ينهب القرية ويقتل أبناءها ونفتديه بكل ما نملك،ما هو إلاّ أسطورة وأن من ينهبها هو إنسان مثلنا..لقد كانت قدرة المال في التغيير فوق قدرة الحكمة-ينطقونها بـ(الحكّة) من باب السخرية- في كشف ثروات القرية..كانت لديه مشاريع كثيرة، لكنها انتهت بنعته بالمجنون العائد بالحكمة على غير عودة المهاجرين بالمال..

أثناء مغادرتي القرية قدم لي نصيحة بدوري أقدمها لك وهي أن الإنسان مثل شجرة القات، كلما نبتت لك أوراق قطفها الآخرون واستمتعوا بها..فإذا تمتّع بها إنسان تدمرت الأرض، وإذا تمتّع بها حيوان بُنيت الأرض..عندما تكون عارياً من الأوراق فلا تغلق الباب على نفسك في الظلام، بل أتح المجال للشمس لأن تدفئ روحك..

: يا أبي..الشمس..لقد ماتت أمي ولم يعد لي شمس..كانت تغمرني بحب شديد دافئ يوازن كرهي الشديد لنفسي ..بموتها رجحت كفّة الكراهية وفقدت توازني.

رد والدي:

سأقول لك كلاماً أوصاني به حكيم القرية ولم أعمل به قط وهو..الحب شيء غامض غموضه يدفعك للكره..عليك أن تكتشف الحب ولو كلّفك ما تطمح إليه..فإن وصلت ملكته، وإن ملكته مكّنك من التغلب على كل الصعاب..الكراهية مثلها مثل المال، لن تملّكك الحب

أو تحقق لك مطمعا، مادمت لم ترتبط بتحركك لاكتشاف الغموض الَّذِي يلف الطريق إليه وتملّكه.

: قلت لك يا أبي إني لا أكرههم، لكنني صرت أكره نفسي..ملامحي..ذاتي.

: كراهية الإنسان لنفسه أشد وقعاً على كراهية الآخرين ولا مخرج أمام كرهك لنفسك، إلاّ باكتشاف المحبة الكامنة فيها ..هيا سر الآن وتابع دروسك فلديَّ ما يشغلني.

خرجت من غرفته فعاد إلى حالته السابقة..لقد اكتشف في غمرة السنوات الماضية أن كل ما سعى لأجله وحققه وكسبه لم يعوّضه خسارته لزوجته الأثيوبية..لقد خسر الحب الوحيد الَّذِي كان يطهّره من عدائه الشديد للقرية وناسها..نعم لقد خالف توقعاتهم وصار ثرياً..محسوداً من قبلهم..نعم، حقق الجزء الأكبر من طموحاته بامتلاك القرية ..اشترى نصف أراضيها ومزارعها، وجعل نصف أهلها أجراء في أراضيه الزراعية ومستأجرين في البيوت التي اشتراها منهم..نعم، ربح الكثير الكثير، وصار أكثر جاهاً من شيخ القرية نفسه، وقادراً على طرده كما طرده منها ذات يوم..نعم ربح الكثير، ولكنّه خسر الحب..لقد اكتشف أن حياته كَانَتْ قائمة على نصفين يعادلان بعضهما البعض، الأول كره شديد للقرية ورغبة في امتلاك كل شيء فيها وتركيع أهلها، والنصف الثاني حب عظيم أغدقته والدتي الأثيوبية عليه..كان هدف والدتي من إغداقه الحب علّه بالمحبة يزيل من نفسه كرهه الشديد للقرية ولناسها، ولكنّ انقطاع أنفاسها في لحظة صاعقة

من حياته قطع محاولاتها تلك..لقد فشلت..فشلت..والفاشل الآخر والدي، الذِي اكتشف لحظة موتها مدى ما كَانَتْ تمثله بالنسبة له..هي الحب وكل الحب..المعادل الذي كان يعادل ميزان الكراهية بالحب..لقد غلبت كفة الكراهية وفقد توازنه وسقط عميقا في قاع ليس له من مخرج سوى الموت!!.

**اسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس في صنعاء بـ(المولّد)، لأني من أم حبشية وأب يمني، وبرغم أن عدد الساعات التي نعت فيها بالمولّد الحقير وما لحقها من انعكاسات سيئة على حياتي، كانت أكثر من عدد الساعات التي لم أنعت فيها، هذا من دون احتساب ساعات النوم، إلاّ أن ساعات أخرى مضت دون أن يغادر والدي غرفته.**

في الساعات العشر الأولى اعتقدت أنه قد غادر الغرفة بدليل أن بابها مقفل، وفي الساعات الست الثانية، تأكدت أنه لم يغادرها بدليل أنه لم يخرج قط ولم يره أحد ولم ينتعل حذاءه المتروك أمام باب الغرفة ووجدت عصاه و(جنبيته) المعلقتين في المعلاق الواقع خارج الغرفة..اقتربت نحو غرفته..طرقت..ما زال الباب مقفلاً..

: أبي.

لا رد

: أبي

لا رد

في المرة السابقة أجابني بعد أن ناديته مرتين..سأناديه هذه المرة ثلاث مرات.

: أبي.

لا رد..

كان أبي قد سقط عميقا في قاع الموت وعمري لم يتجاوز بعد الثانية عشرة..يا للكارثة..مَاذَا سأفعل..لقد مات أبي..لحق بأمي تاركاً في صنعاء صبياً وبيتاً وبصائر أراض وبيوتاً وأراضي زراعية في القرية وأجراء وأحقاداً ودموعي...

لم تكد دموعي تجف على موت والدتي حتى تبعها والدي أيضاً..توافد أقاربه من القرية.. عمّاي..أولادهما..الأجراء..الحكيم ستارلين الَّذِي حدثني أبي عنه..شيخ القرية..لم أذكر لكم الأخوال،إذ لم يكن لي أخوال في قرية والدي..كان أخوالي في الحبشة..أعمامي كانوا في طليعة من قدموا..يجرّهم طمع لا نهائي لامتلاك ما لدى والدي..عمي الكبير (حمود) كان الأكثر طمعاً والأوفر حظاً وصاحب تجربة في النهب، وعمي الأوسط (بلال) كان الأقل طمعا، والأقل حظاً في حياة عاقلة، فيما عمي (فهد) الأصغر كان أقلهم طمعاً؛ ولكنّني خلال السنوات التاليةلإقامتي الإجبارية في القرية وبما تمكنت تعلمه من الحب من أمي كسبت بعضا من حبه وعطفه.. أن تكسب من كائن واحد البعض وتخسر البعض يعني حبا غير مكتمل ..حبا من ذلك النوع الذي يمكن أن تتغلب عليه الأطماع.

استدعاني عمي الكبير (حمود) وهو يحمل ورقة وقلماً ومصبعة.

: أنت مولّد وأمك حبشية وما يحق لك أي ميراث..المحكمة حكمت بأن أكون وكيلا لأملاك "أبوك" لحين ما تكبر..وقّع هنا وابصم تحت التوقيع..أنا وكيل أملاك أبوك لحين ما تكبر، لكنّ.... خفت منه..وزاد من خوفي حديث أبي الجاف عن إخوانه وخاصة حمود..لا تخف ولا تهلع فالتوكيل لحين ما تكبر، ومثلما قال القاضي تبلغ السن القانونية.
ظاهرياً أتممت الإجراءات على أساس أنه وكيل مهمته تتلخص في الحفاظ على الممتلكات، وذَلِكَ حتى أبلغ السن القانونية وليس توكيلا كاملا يخوّله أن يصل بممتلكات أبي إلى الجحيم، أمّا باطنيا فأتممت الإجراءات لأنني كنت متعطشاً لأهل أشعر بحنانهم فالأهل هم أهم شيء عندي..لقد كنت بحاجة هائلة لحنان أسرة.. بعد انتهاء إجراءات التوكيل أخذني معه إلى القرية..ستكمل دراستك في مدرسة القرية، وستعيش فيها، فلا يصح أن تعيش لوحدك في صنعاء بدون راع والبيت في صنعاء سأؤجره..

في القرية قضيت سنوات كابوسية..قرية مقفرة جافة..حزينة..نصف أهلها يكرهونني ليس لأني مولّد وأمي أثيوبية فقط، بل لأن والدي استغل حاجتهم واشترى منهم أراضيهم الزراعية وبيوتهم وجعلهم أجراء عنده..يا إلهي، في صنعاء كنت أعاني التهميش.. من حقي بالحياة كإنسان كامل لا يُنعت في انتمائه لبلده اليمن بحجّة أن أخواله أحباش، لكنّني في القرية عانيت من أمرين اثنين..لو كان الحكيم الَّذِي حدثني عنه أبي مراراً وتكرارا موجودا ربما لخفف عني، ولكنّ أَيْنَ هذا الرجل..لقد اختفى وحسب.

فهد: لم يختف يا ابن أخي بل غادرها مطرودا.

:مطروداً!!

: نعم..مطرودا والسبب محاولته إقناع القرويين بأن فقدان ثلاثة أشخاص في القرية لعقولهم وعمك بلال منهم سببه عامل بشري وليس سمائياً..وما دام السبب بشرياً فيمكن علاجه.

تملكني شعور بأن عيَّ عمي فهد تحملان حباً وحناناً، لكن طمعه المتواضع في أملاك والدي حد من خروجهما..

قضيت ست سنوات.. مرة خائفاً من بَعْض الأجراء الذين كانوا يتوعدونني باستعادة أراضيهم وبيوتهم بالقوة..ومرة متهما في هويتي ..خلال تلك المرتين باع عمي وبموجب التوكيل لنفسه كل الأراضي الزراعية والبيوت التي اشتراها أبي من القرويين..قطعة..قطعة..كلما باع لنفسه قطعة طمع في الأخرى، وهكذا حتى انتهى من ممتلكات أبي بما في ذَلِكَ بيته في صنعاء..

قالها عمي وقد بلغت الثامنة عشر عاماً، وصار من حقي استرجاع ممتلكات والدي بإلغاء التوكيل

: أي توكيل وأي ممتلكات يا ولدي..أبوك ما كان يملك شيئاً في القرية..كان يملك بيتاً في صنعاء وأنا بعته مقابل أصرف عليك كل هذه السنين..كل ما تبقّى "لأبوك" هذا الملابس القديمة: قميص وسجادة وكيس نوم..لو كان لها ثمن كنت بعتها واشتريت لك بها طعاماً.

: طيّب ولماذا القرويون يخوّفونني ويتوعدون باسترجاع أراضيهم الزراعية التي يقولون إن أبي اشتراها منهم مستغلاً حاجتهم الناتجة بسبب موجة جفاف استمرت لسنوات.

: كذابون..الَّذِي اشترى هذه الأراضي والبيوت هو أنا..الناس اختلط عليهم الأمر.

ما أفظع أن تكتشف أن العالم كله بما في ذلك باطنك يخوّنك..بدّلت محل ظاهري بمحل باطني.

: أنت يا عمي كذاب.!!

: أنا كذاب يا مولّد يا حبشي..أنا كذاب لأني آويتك وأطعمتك وحافظت عليك.

: من حق أبي..من ممتلكات أبي.

: ومن قال لك إن أباك أخي..وإنك ابن أخي؟

: أبي أخوك وأنا ابن أخيك والدليل معرفة الناس.

: أخي مات وهذه شهادة وفاته وابن أخي مات وهذه شهادة وفاته أيضا، وأنت لست سوى صبي وجدتك في بيته..عندما انتهت مراسم دفنه وصرت وحيدا من دونه رحمتك، وأردت طلباً من الله الحسنة أن آويك وأطعمك..قلت ابن أخي..ملامحك حبشية..

: لديَّ ما يثبت.

:هات.

: التوكيل..أوراق أبي..أملاكه..

: أي شيء له علاقة بالأوراق والأملاك بح..احلم.!

: الناس في القرية يعرفون أني ابن أخيك وصاحب الحق.

ينادي..طريقة النداء تظهر وكأنها خطة حبكها بذكاء شيطاني خارق..يدخل الديوان مجموعة من رجال القرية الذين يحلمون بعودة ولو نصف أملاكهم التي اشتراها أبي منهم مستغلا حاجتهم..كانت رؤوسهم معبأة بوعد من قِبل عمي بأن يستعيدوا جزءاً مما باعوه لأبي مقابل إنكارهم صلتي بأبي..هم أصلاً يكرهون نصفي الثاني ويشعرون بالعار نتيجة ذلك!

: تعرفون هذا؟

: لا ..لا ..ما نعرفه.

: يقول إن أخي أبوه.

: لا ..القبيلي ما ينجب أحباشاً.

يخرجون

: معك شيء عندي..اخرج.

: لا ..عندك يا عم..عندك.

: أخرج من هنا بروحك قبل أن أخرجك بدونها.. يحشو بندقيته (الشميزر2) بطلقة قاتلة ويصوّبها نحو وجهي..أخرج من هنايا مولّد..أخرج..

: أَيْنَ أخرج؟ ما عندي مال ولا أوراق هوية ولا..

---

[2]: **الشميزر.. وهي بندقية قديمة.. إيطالية الصنع ..منتشرة في قرى اليمن.**

: ميّي حسنة..خذ هذا قميص وسجادة ممزقة كان قد تركها من تسمّيه بوالدك في البيت الَّذِي تدعي امتلاكه له..إنها نفس الملابس التي حملها معه عندما خرج مطروداً من القرية.

ويُطلق طلقة تنغرز في سقف الغرفة كإشارة إلى استعداده لقتلي.

ساعات وكنت مغادراً القرية أسير إلى صنعاء على قدمي حاملاً القميص والسجادة الممزقة التي حملها والدي أثناء مغادرته القرية قبل (19) عاماً..لقد تمكّن عمي من إخفاء كل ما يثبت هويتي،حتى ملفي في مدرسة القرية أحرقه..وبعد ما انتهى من تمليك نفسه كل ممتلكات أبي بموجب التوكيل استخرج شهادة وفاة لي وختم خطته في الاستيلاء على ما هو لي بشراء ذمم بعض أهل القرية..لم أكن حزيناً على ضياع الممتلكات، لأنني كنت اعتبرها تحدياً طمح إليه والدي وحققه، ومثل هذا النوع من التحدي – كما قالت لي أمي ذات يوم ولم أ ع معناه في حينه – ينتهي في العادة نهاية مفجعة، بل كنت حزيناً على فقدي لحنان الأهل ولمادية عمي حمود ولموتي الصوري و..ماذا يا شمس؟. ماذا يا قمر؟. ماذا يا سماء؟..لم يكن ثمة ما أستعين به سوى نصائح وحكم أبي التي نقلها من حكيم القرية..لقد انجذبت لعوالم مبخوت الحكيم من دون أن أراه..إن عوالمه تكاد تشبه عوالم أمي..حكمة تتكئ بالتجربة وتستقيم بالمحبة وتنطلق بالأمل والصبر..ترى من أين تعلم هو وأمي ما تعلماه..؟

ومن دون إجابة واصلت سيري..عشر ساعات من المشي أوصلتني إلى مدينة (ذمار)..تبقّى على حلول المساء أقل من

ساعة..والجوع يفتك بي طيلة ساعة أخرى من المشي وصلت حدود ذمار..ثمة مطعم شعبي يقع في مخرج ذمار باتجاه مدينة (معبر)..خبز شعبي..رائحة الفول..لا أحد يعير أحداً اهتمامه..انتظرت حتى انتهى أحدهم من عشائه..تناولت بقايا طعامه وواصلت المشي..ساعات أخرى وسط ظلام مريع، وصلت إلى حدود صنعاء..كان مرشدي إلى صنعاء الطريق الأسفلتي..كنت أسير بمحاذاته..سيارات تبتلعها صنعاء وأخرى تتقيأها بسرعة الصاروخ.. بَعْضها تلقي بالاً لي وبَعْضها تلقي عليّ القاذورات..

سيارة توقفت..كان صاحبها ذا وجه ورع..عرض إيصالي، لكنّ طريقة ونبرة صوته في العرض كَانَتْ مريبة!!

اعتذرت له بصوت تقي وواصلت سيري..سيارة أخرى يركبها قتلة..مسلحون بالرشاشات والقنابل توقفت..عرضوا إيصالي بلغة راقية ونبرة حنونة..

التناقض هائل بين وجه السائق الأول، والباعث على الطمأنينة، ونبرة صوته الباعثة على الخوف والهروب من الكرة الأرضية، وبين وجه السائق الثاني ومن معه وما يحملون من أسلحة والباعثة على الخوف والهروب، ليس من الكرة الأرضية فحسب، بل من المجرة، ونبرة أصواتهم الباعثة على الطمأنينة!

تناقض مريع بين ظاهر يحث على رد فعل "ما"، وباطن يحث على رد فعل "آخر"!!

هربت..جريت عكس الطريق..تمنيت أن أهرب ليس خارج الكرة الأرضية ولا المجرة، بل خارج الكون كله، لكنّ انقطاع أنفاسي طرحني أرضا..لم تبتلعني السيارة..تركتني لتبتلعها صنعاء..بدوتُ كمجنون علاجه الشعور بالطمأنينة.

تبقّى على آذان الفجر ساعتان، وها أنا ذا أقترب من نقطة تفتيش صنعاء..ابتهجت..سأرى الضوء الصناعي..أناس..سيارات كثيرة..مشاهد تعيد لي عقلي وتشعرني بالطمأنينة.

لا تعتقد أن أسوء ما في كرتنا الأرضية هذه أن ينهار- وفي أصعب لحظات حياتك- اعتقادك بالحصول على الطمأنينة في مكانً ما، لأن الاعتقادات التي تتعلق بالقشّة تنتهي نهاية مأساوية..وها أنا ذا-كتجربة حيّة- انتهيت مقبوضا عليه من قبل عسكر النقطة بتهمة شنيعة.

لقد تجاوز العسكر حدود عملهم في تفتيش السيارات وألقوا القبض عليّ بتهمة أنني بلا هوية!!..

مثل انفجار اسطوانة غاز مهترئة من مطعم شعبي صغير، ينطلق رجل نصف عجوز وينقذني من عقبة تلك الورقة اللعينة المسمّاة " هويّة"، وذلك بأن تحوّل بكلمات سحرت العسكري الذي يشبه قمامة لا تصلح لإعادة التدوير إلى "هويّة" لي!! .

: من أنت؟

: أنا أحد أقاربك من القرية.

: لكنني لم أرك سواء في بيت والدي في صنعاء أو طيلة ست سنوات قضيتها في القرية.

: القرية..تركتها مرغماً قبل ست سنوات.. تستطيع القول قبل وصولك إليها وافتتحت هذا المطعم الشعبي..أمّا بيت والدك فلم تتسن لي الفرصة لمعرفته ورؤيتك فيه إلّا بعد وفاة والدك..رحمه الله.

كمن سقط كوكب على رأس صادق

: أنت..ستارلين..الحكيم..مبخوت.

: نعم.

وأبتهج..أغني للكون والمدن المنسية وللمصادفات الجميلة..يوقف مبخوت غنائي.

: الأغنيات تصنع البهجة من حولك، لكنها كالفراشات تطير باحثة عن الزهور غير عابئة بالأحزان التي تخلّفها في الصدر.

: .....!!

: لا تخبرني قصتك فأنا أعرفها كما أعرف نفسي..أبوك خرج مقهوراً من القرية كما خرجت أنا..حاملاً ما تحمله الآن..تاجر بين البلدين..تزوّج بأجنبية وكوّن الثروة..ماتت..مات..طمع الإخوة..أخذوك..سرقوك..تخلصوا منك، وها أنت ذا بلا هويّة ولا أهل تسير إلى صنعاء!!

وتنطلق دمعة من عينيَّ

تأخذ الدمعة في سقوطها زمنا طويلا..تسير الدمعة في مسار عشوائي ينتهي بسقوطها خارج المطعم.. يُحدث سقوطها فرقعة ..يتنبه

عصفور صغير كان يأكل من بقايا خبز ملقي أمام المطعم لصوت الفرقعة ..يهلع..يعبّر عن هلعه بإطلاق شقشقة..على بُعد أمتار من المطعم يبرز كلب ..يتنبه للصوت الصادر من العصفور ..يقف..تبدو عليه علائم الشر ..في وقوفه وانتباهه إشارة خطر..لمن..لم يسأل أحدٌ لمن؟.. ففي هذه البلاد الكلاب البرية تنبح بسبب وبلا سبب!!

: الدموع لن تفيدك..أو تبني لك جسرا يوصلك إلى الفرح ..إنها مجرد قطرات تتكون من الأكسجين والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والماغنسيوم والأمونيا والآزوت والأحماض الأمينية والحديد والنحاس..إذا قلّت احرقت بشرتك وإذا فاضت أغرقتك.. ما يفيدك مبدئيا هو الإجابة عن سؤالي المحيّر بصدق..هل أنت سائر إلى صنعاء لبناء حياة جديدة لك، أم لتدمير ما تبقّى من حياتك؟

: لبناء حياة جديدة لي.

: ومن أين استمديت رغبتك في بناء حياة جديدة.

: من أمي..قبرها خبرني.

: أثق في أن القبور تتكلم وتمد الأحياء بالأمل، لكن كيف تمكنت من استمدادك هذا وأنت لم تتجاوز سن الحكمة حين ماتت وتبعها والدك..

: قبل أن يأخذني عمي حمود للقرية قررت زيارة قبر أمي .. ولكن زيارة غير عادية.. زيارة أخبرها فيها بكل المستجدات.. وكمنجذب لأفعال غير صادرة مني، بل من قوى خفية لا أدري كنهما.. وقفت أمام

قبرها..أغمضت على غير عادة زوار المقابر عيناي.. ثوان وكانت رغبتي في الاستمداد قوية!

: اطمأنت نفسي..إذاً فلنبنها بغير الدموع ..ارتح..كُلْ..نم..وصباحا انطلق..

وصباحا رفضت أن أنطلق إلاّ حاملا إجابة عن سؤال حيّر أبي وحيّرني.

: لماذا تطلق على نفسك (ستارلين)؟

: إن أجبتك خسرت لذة الاستمتاع بالألم المصاحب للحظة التسمية.

: وهل الألم متعة؟

: وهل حيرتك ورغبتك في معرفة سبب تسميتي متعة!

: لا..إنها ألم.. ألم شديد..أرجوك ..أزل ألمك وألمي.

: ستارلين كلمة إنجليزية تعني التائه الغريب..كنت أثناء عملي بحارا نازلا في أحد شواطئ أندونيسيا..وعلى مقربة كانت هناك شابة أندونيسية فائقة الجمال تلتقط المحار، ورجل هولندي من محتلي أندونيسيا – يشبه من حيث القذارة مالك السفينة الهولندي التي عملت فيها – يرقبها بنظرات خبيثة..عندما مررت من خلالهما وأظهرت الشابة ارتياحها من وجود شخص ثالث، أطلق الهولندي من وجهه الذي يشبه رصاصة مغمَّسة بالدم نظرة احتقار وشتمني بقوله (strayalien) أي التائه الغريب ورحل، فظنّت الشابة التي كانت الشمس تتدفأ بجمالها الذي يضاهي الجمال نفسه،أنه اسمي فنادتني به وهي لا تعرف ما معناها..قالت لي بلغة الإشارة إن الهولنديين أوغاد وعليّ ألا أعبأ به..شعرت بأن احتقاري من قبل الهولندي وشتمه إياي

نعمة كان من شأنها ربط قدري بقدر هذه الشّابة، ولكنّي على عكس والدك أنهيت كل شيء مبقياً على اسمي الجديد الذي مازلت أفضّله وسأبقى..

: أنهيتهاهكذا وبدون سبب.

: أنهيتها لسببين، الأول وهو غير مهم لأني كنت مديونا لمالك السفينة التي كنت أعمل بها ولا مخرج سوى بالعمل عنده حتى سداد ما عليّ، والسبب الثاني وهو الأهم أنني لم أرد إنجاب أبناء مهجّنين مثلك يعانون التمزق في حياتهم..لقد التقيت خلال عملي بحاراً الآلاف من اليمنيين المولّدين والمهجنين واستشعرت معاناتهم نتيجة شتات هويتهم بين ثقافتين كلاهما لا تعترفان بالأخرى، و لم أرد أبناءً يتعذبون مثلك.

يدمع

: دمعتك فيها إشارة لندم!

: هل تعرف لماذا أصلي؟

: لا!!

: أصلي كي يستجيب الله لدعائي بألا أرزق منها بطفل إذ تركتها بعد ثلاثة أشهر من الزواج مكبَّلا بقيود صاحب السفينة.. ها قد خسرت لذة الاستمتاع بالألم المصاحب للحظة التسمية..

: هل سيستمر عذابي؟

: لن أجيبك، فأنت أدرى..هيا انطلق

واصلت سيري إلى صنعاء.. ساعات أخرى وهضمتني (صنعاء).. (حزيز) .. (باب اليمن).. (الزبيري)..حي (وردة)..شارع

فرعي في بدايته جامع وردة وفي منتصفه بيوت شعبية وعمارات وفي نهايته بيت والدي.

* * *

**اسمي صادق...**

**وها قد وصلت صنعاء..حاملاً القميص والسجادة الممزقة التي حملها والدي ذات مرة مرتدياً ملابسي الرثة، واقتربت من حي وردة، الذي يملك فيه أبي بيتاً.**

طرقت الباب..فتحت لي صبية سمراء

: من..؟

: أنا ابن صاحب البيت.

: من تبغى..كَانَتْ تتحدث بلهجة أقرب إلى العراقية..يبدو أنهم من اليمنيين الذين كانوا مغتربين في العراق وتسبّبت أزمة الخليج في إعادتهم إلى اليمن.

أخبرتها بأن هذا بيت أبي وعليهم أن يتيحوا لي المجال لأتحدث مع رجل البيت..ظنّت الصبية ومن خلال ملابسي الرثة أنني متسول بنصف عقل،فقذفت بطعام من النافذة وبسرعة الخائفة من جنوني أغلقتها.

: أبي برا.. ما موجود..روح من هينا الساعة.

جمعت الطعام وبدأت في أكله عازما البقاء حتى عودة أبيها..ثمة نافذة،على مقربة من الطرف الآخر للشارع لإحدى العمارات ترقبني..

وقبل أن أنتهي من الطعام..اقترب رجل يرتدي ثوباً مغزولاً من شعر لحيته صوبي

: أنت سيء وفقير ومهجَّن، لكنّك لست أسوء منه!

: من..من؟

: أباك الَّذِي باعك للكلاب والكلاب التي باعتني بموجب أوراق صحيحة هذا البيت؟

: أنت الساكن في بيت أبي؟

: أنا المالك الجديد للبيت الذي باعه لي عمك بموجب التوكيل الذي يحمله.

:وكيف تشتري بيتاً تعرف أنّه ليس ملك من يبيعك إيّاه؟

: موقع البيت المغري ورغبة وكيلك في بيعه لي بسعر أقل من المتعارف عليه ..مقابل أن تتم المبايعة دون وجود الموكّل.

: بحسب علمي كنت حينها قاصرا والتصرف بحق القاصر باطل.

:مجرد معرفتي بأنك مهجّن أكد لي بأنك أضعف من أن تطالب به.

: وما أدراك أني ضعيف ولا أقوى على منازعتك في ملكيتك له؟.

: مالي وقوتي ونفوذي وصحة أوراقي، والأهم من هذا كله أنك مهجّن والمهجنون في اليمن ضعفاء لا حول لهم ولا قوة..إنهم نتيجة حتمية لاغتراب آبائهم وتزوجهم بالأجنبيات.

: وما أكد لك أنهم ضعفاء؟

: المهجّنون في العالم كله معروفون بضعفهم..لقد شاهدت طيلة عشرين عاما من اغترابي في العراق الكثير من مآسي المهجّنين..هذا ثمن أن

تكون أمك آسيويةأو أفريقيةوأبوك يمنياً..المهجنون مظلومون في العالم كله.. وليس في اليمن فقط..إنهم قتلى من دون رصاص..موتى من دون مقبرة تأوي جثثهم.

: تتحدث بلسان رجل رحيم يعرف العدل ويدرك الحق، لكن تصرفاتك توحي بنقيض ذلك..

: أنا أتحدث بلساني، ولساني هو قلبي، وقلبي هو يدي ويدي تحمل السلاح .. وما دمت أحمل السلاح وفي وجه من .. مجرد مولّد مهجن يتميز كغيره من المهجنين بالضعف وقلة القوة فانني سأنتصر .. هيا أيها المولَّد الحقير .. انصرف، فلا يصح أن أقتل مولّداَ لأن المولَّدين أصلا قتلى من دون رصاص!.

: لم أُقتل ولم أمت بعد ..أنا..أنا قادر على رد كل ما هو حق لي.

:أنت ميت واسأل عمك الذي باعني البيت مستندا للتوكيل وشهادة وفاتك.

: الآن عرفت من وراء استخراج شهادة وفاتي.

: كل أراضي وبيوت صنعاء لم تُشتر بالتراضي وأنا اتبعت التقليد.

: تتحدث بثقة.

: من يغترب في العراق لا يتعلم منها سوى الثقة النابعة من القسوة..هيا لا أريد أن أراك بالقرب من بيتي فثمن الرصاصة التي من الممكن أن أطلقها على رأسك أغلى منك.

نعم، لقد كان عمي محقاً في استخراج شهادة وفاة لي..فبالفعل لقد مت ولم يعد لي ماض..لم يعد لي أحد..لا أبي اليمني ولا أمي

الحبشية ولا واص ولا اسم..هل يعني ذَلِكَ أن أتحطم وأصير نصف مجنونٍ كما وصفتني الصبية..أم أنهض بنفسي من جديد كما نصحتها وأيّدها حكيم القرية؟

قررت الخروج إلى الشارع لتأمين عمل يقيني البرد والجوع والمخافة، وبعد الوقاية سأبحث عن هويتي الضائعة بين وطنين يتقاتلان بالألوان بين هويتين كلاهما تنتقصان من الآخر..في البدء اخترت مكان نومي..خلف المولّد الكهربائي الدافئ للمستشفى الجمهوري، الَّذِي يبعد مسافة مائة متر عن حارة وردة حيث يقع بيت أبي السابق.

هل قلت السابق؟. نعم قلت السابق..لأنني قد ولدت من جديد..من جديد..وأنطلق..خطوت مبتعداً عن حي وردة ..النافذة التي مازالت دون علمي تبكي ترقبني..تبعتني..عرفت مكان مرقدي ..جمعت بعض المعلومات عني.

تنقلت خلال الشهر الأول بين ستة أعمال..الأول دام 16 يوما غاسلاً للصحون في المطعم المجاور لبيت والدي السابق، والثاني 26 يوماً في محل حلاقة، والثالث 20 يوما في محل لتنقية وتعبئة المياه، والرابع 30 يوماً مساعداً لمعلم متخصص في طلاء جدران البيوت، والخامس 31 يوماً كحارس لعمارة تحت البناء، والسادس ثلاثة أيام عاملاً بلا أجر.

لا أريد أن أقذف بي في متاهة هذه الأرقام وارتباطاتها المعقّدة ولا بإدخالها في عمليات حسابية تنتهي بأن جمعها يساوي (106) أيام وتدرجها من الأُولَى حتى الخامسة يكشف 1/0/0/6/6 بما

يساوي بعد حذف التكرار (106) ونهايتها (3) أيام وهي المجموع العددي لـ1/0/6 (106) رقم الغرفة التي نزل وتزوج فيها والدي و(6) أيام هي الفارق بين موت أبي وموت أمي و(0) هو عمر ابتسامتي و(1) سر عظيم..ما أريده حقاً، هو أن أتجاهل هذه الأرقام فلقد انتهت كلها بنهايات مأساوية وأخبرني كيف كانت نهاية كل تلكم الأعمال.

الأُولَى انتهت بطردي من قبل صاحب المطعم بحجة أن عملي في المطعم كنادل للزبائن أدّى إلى جذب الكثير من الزبائن المولَّدين..لقد تغلّبت عنصريته المقيتة على رغبته في زيادة أرباحه!. والثانية آلت إلى طردي من قبل ابن صاحب محل الحلاقة إثر اكتشافه أن شدّة إخلاصي في تنظيف المحل،أدت إلى جذبي زبائن جدد تغريهم محلات الحلاقة النظيفة..إن زيادة عدد الزبائن كانت تعني عملاً إضافيا للابن الحقود، الذي كان يعمل في محل أبيه دون مقابل!! والثالثة انتهت بطردي من قبل ابن أخ صاحب محل تنقية وتعبئة المياه، بحجّة أن أحد جيران والدي –الَّذِي تعرّف عليّ–أخبره بأني مولّد أي من أب يمني وأم أثيوبية ويتيم الأبوين،والمهجّن في العادة لا هوية له، وإذا أضفت له صفة اليتيم، فليس له ضامن في حال سُرقت قرب المياه الفارغة، أو تعرضت الحنفيات للتسرب، رغم أنّي بذلت جهدا كبيرا في وقف تسرب الكثير منها.. الرابعة انتهت باعتذار معلم الطلاء عن العمل كمساعد له، بسبب أني بلا بطاقة شخصية، والخامسة عملت حارسا على معدات بناء، انتهت بأن حصل صاحبها– منذ أول أيام

مباشرتي للعمل – على مبلغٍ كبيرٍ من المال، مكّنه من إكمال بناء العمارة في مدة قصيرة لم تتجاوز الـ31 يوما، وذَلِكَ بعد أن ظلت متوقفة لسنوات، والسادسة ثلاثة أيام موظفا في (مكان) لن أذكره، لأنه كان بلا أجر.!!

خلال الـ106 أيام الَّتي ابتعدت فيها عن الحي كَانَتْ النافذة تبكي باستمرار..وكنت دون علمي ببكائها أبكي لسوء حالي.

قررت – استناداً على أن وقت البحث عن الهوية مازال مبكراً– الاستمرار في البحث عن عمل مناسب، يقيني الجوع والبرد والمخافة، ولكنّ قراري انتهى إلى لا شيء!

أَيْنَ سأذهب؟. أَيْنَ سأنام؟. ومَاذَا سآكل؟..أسئلة حامضة أزعجت معدتي الممتلئة بالديدان الناتجة عن أكل بقايا طعام مرضى المستشفى الجمهوري، لكنّها لم تمنعني على العموم من مواصلة النوم خلف المولِّد الكهربائي الدافئ للمستشفى..

أفقت في صباح اليوم الثاني من بعد الـ106 أيام لوصولي صنعاء على أثر ضجة هائلة أصدرتها الديدان المستقرة على شكل أكياس في معدتي..

الجوع شديد، وأشد منه رغبة الديدان التهام معدتي إذا لم يصلها الطعام..بقايا طعام المرضى والمرميّة في مقلب القمامة الواقع بالقرب من المولِّد الكهربائي، على غير العادة مختلطة بدماء المرضى وقيحهم والآلاف من الذباب

: حتى بقايا الطعام صارت عصية!

أمشي قاطعاً مسافة تزيد على الثلاثة الكيلو مترات أبحث عن عمل..الشوارع مزدحمة بالسيارات.. بالموظفين الحالمين براتب يتغلب على الديون..بالعنصريين.بالمناطقيين..بالشحاذين. بالمحبين.الملصقات الدعائية..احذروا الأوبئة..احذروا الإيدز.احذروا..احذروا.اللوحات الدعائية للمحلات.طبيب أطفال.طبيب أمراض عصبية.بقالة.صيدلية..حركة تتصاعد من حولي ومعها تتزايد حركة الديدان في معدتي.

لا فائدة..لا أحد يريدني أن أعمل عنده..آه..تذكرت المدرسة التي درست بها الابتدائية..سأنطلق إليها..عليّ أجد حارسها..عليّ أجد أحداً فيها يعطيني طعاما..و..و...هل يمكن أن أحصل على ما يفيد هويتي من المدرسة..؟

صدمني السؤال الَّذِي تنطع بصورة مفاجئة ومدهشة في رأسي وبدا لي كوقع اصطدام مجرتين بَعْضهما بِبَعْض.

وسرت قاطعاً حي وردة باتجاه المدرسة..لم ألتفت لرؤية بيت أبي السابق ..لقد طمسته من عقلي الشبيه بكرة مصنوعة من الشربات..النافذة التي مازالت تبكي ودون علمي توقفت عندما رأتني عن البكاء ودون علمي أيضاً!

حارس البوابة لم يعد يتذكرني، لكنّه سمح لي بالدخول شرط أن أقضي غرضي، وأخرج سريعا، فبعد قليل سينتهي اليوم الدراسي ويغادر الجميع.

آه..لم تتغير المدرسة، لكنّ وجوه الطلبة تغيرت..إذا تغيرت وجوه الطلبة كنتيجة طبيعية لتخرّج قرنائي، فإن بعض وجوه المدرسين لم تتغير..

عدت أبحث عن أي أستاذ ممن درَّسُوني..الأستاذ السوداني الطيّب زين عاد إلى بلده، الأستاذ ناصر والذِي كان يعمل أستاذاً بدرجة متعاقد استقال بعد يأسه من الحصول على درجة وظيفية..مدير المدرسة أُستبدل..قيل لي إن قراراً وزارياً صدر باستبداله بآخر، وأن الآخر الذي يشبه قلم رصاص كشط مرارا وتكراراً، اشترط أن تصله دعوة مزيّنة بالألوان، وتهنئة منشورة على صفحتين في الصحيفة الرسمية، لكي يحضر ويمارس مهام عمله الجديد.

تساءلت: هل يمكنني الحصول على شهاداتي أو ملفي في المرحلة الابتدائية؟

: إذا كنت قد تابعت الدراسة في مدرسة أخرى، فمن الطبيعي أن يُسحب من قبل ولي أمرك وينتقل معك.

: تابعت الدراسة.

: إذاً،أطلبه من المدرسة التي انتقلت إليها.

: حسنا..هل أجد عندكم أي شيء يثبت هويتي؟

: هويتك..يوجد ما يشير إلى هويتك كطالب في الدفاتر الكبيرة، ولكنّ إخراجها غير مسموح، والأهم من هذا أنها لن تفيدك لأنها لا تعتبر وثيقة.

: لِمَاذَا؟

: أولاً..إنها غير معتمدة رسمياً، وثانياً لا تحتوي على الصور الشخصية الدالة، وثالثاً هي عبارة عن ملخص لنتائج الاختبارات، ورابعاً هي في الكنّترول ترزح فوقها العشرات من الملفات والأغبرة.

يرن جرس المدرسة ..معلنا انتهاء اليوم الدراسي ..يخرج المئات من الطلبة ..يتدافعون..يطرحوني أرضاً..ينطلقون عائدين إلى بيوتهم ..هوياتهم..وأبقى أنا وحدي بلا بيت ولا هوية!.

لا أحدسوى مولّد..ببشرة سوداء والآلام وحسرات لا نهائية.

لا أحد..سوى هجين.. ضائع بلا هوية..تائه..

لا طعام..لا أحد يعرفني..لا ضوء يؤدّي للهوية فلا إمكانية..لا إمكانية..لا إمكانية.

قوة وقع الجوع أقل من قوة وقع الشعور بالغربة..خرجت إلى الشارع مجدداً..شمس الظهيرة، كما تحرق نفسها تحرقني..الشوارع مزدحمة..بسطاء..خبثاء..فقراء..أغنياء..محلات تصرف عليها الدولة بطرق معقّدة..ومحلات تصرف على الدولة بطرق أكثر من معقّدة !!

تردد صدى حزين بداخلي

: إلى أَيْنَ المصير؟

سؤال محيّر يحتاج للإجابة عنه أن أتحمل الجوع، وأواصل البحث عن عمل..نعم سأواصل البحث عن العمل، فأنا أجيد الكتابة والقراءة وحاصل على شهادة أحرقها عمي في المرحلة الإعدادية..آمال كبيرة تستند إلى سيرة تافهه ترجو أن تجيب عن السؤال المحيّر.

: إلى أين المصير؟

وأمشي..عكس الطريق الَّذِي سرت فيه في النهار..أمشي بمعيتي جوعي وضياعي وظلال من الأمل.

أن تفقد القدرة على الحركة إشارة إلى أنك منهك، ومنهك تعني أن تفقد الرؤية بوضوح، والفقد إحالة إلى قيام ما حولك نيابة عنك بما هو من صميم مهامك.

تتفحصني الاتجاهات..تدخلني المحلات.تسألني عن عمل..يتفحصني الناس في الشوارع عل أحداً ممن كان يعيش أو يدرس معي يتعرف عليّ.. لا أمل..لا أمل، فلقد وصلت من كثرة بحث المحلات عني إلى (حزيز) الواقعة بأطراف صنعاء، ولم تعد ثمة محلات..لا شيء غير الحزن والجوع.. و...آه ..تذكرت ..أمي ..قبرها.. سأنطلق إليها..سأزورها..سأشكو لها فظاعة حالي..سأطلب نصيحتها..سأتنفس..نعم هي متنفسي الأخير ..الأخير

**اسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس في صنعاء بـ(المولّد) لأني من أم حبشية وأب يمني، ولكنّ ذَلِكَ اللقب الذي له السهم الأكبر في تدهوري لم يمنعني من السير إلى قبر أمي..**

استوقفتني شابة في مثل سني قبالة باب المقبرة

: المقبرة تغلق أبوابها في الظهر ..

: وهل زيارة الأموات تتطلب أوقاتا محددة!

: نعم ..لأنك في غير الوقت المحدد ستزعج الأحياء منهم!

: أحياء..هل يوجد موتى أحياء!؟

: ماذا ترى أمامك ..أنا مثلا ميتة في جسد حي.. وأبي حارس وحفار القبور وبيتنا هو ذاك الواقع في ركن المقبرة الغربي..أتراه.

: نعم .. أراه..ما اسمك؟

: اسمي (تراب) تعرف إلى ما يشير اسمي.

: إلى الموت..ولكنك حيّة.

: قلت لك .. حيّة ميتة في نفس الوقت..هيا ..سأسمح لك بزيارة سريعة ..أسرع قبل أن ينتهي أبي من صلاة الظهر فإذا انتهى ورآك عاقبني وعاقبك.

: حسنا..!

وقبل أن أخطو الخطوة الأولى نحو قبر أمي بدا الحفار مثل شيطان رجيم ..عيناه تطلق النار .. ويده تمسك بالفأس الخاص بالحفر.

: تراب.. لماذا تقفين إلى جانب هذا الغريب كاشفة الوجه.. تتاجرين بعرضي.. بشرفي..لا يسلم الشرف إلاّ بدفنك ودفنه ..

: إجري ..اهرب..

: وأنتِ؟

: إنجي بنفسك ..سيدفنك..لا عليك مني.

وأجري ..أجري..يتصبب عرقي بكثافة..يكاد يتساوى وزن عرقي بوزن جسمي..وأسقط لاهثا متعبا..أسقط في كومة قمامة..تغطي القمامة جسدي باستثناء وجهي..الكيس الذي أحمله دائما ويحتوي على قميص وسجادة والدي غطى رأسي.. لم يتمكن الحفار من رؤيتي..تجاوز القمامة وواصل البحث عني.

تستعيدني الأنفاس.. تطالبني الأنفاس بشربة ماء.. وانهض..أسير.. فرحا بنجاتي حزينا لعدم نجاتها.. شربة ماء من محل سبيل، وأنام ساعة تحت المولّد الكهربائي للمستشفى الجمهوري محتضنا الكيس ومتدثرا بقميص وسجادة والدي.. أكلت من بقايا طعام مرضى المستشفى..أعادت لي تلك الأطعمة حيويتي وصرت قادراً على تفحص الاتجاهات.

العصر..القات..أصحاب المحلات جلوس..ينفخون خدودهم بحشو وريقات القات..اقتربت من محل لبيع الأدوات الكهربائية يقع أمام المستشفى الجمهوري..كان المحل مغلقاً عندما مررت منه في الصباح.

صاحب المحل يحّدث ابنه وحبيبات القات تنطلق من فمه منتشرة في سماء المحل.

: يا ابني اشتريت في النهار..(الدينمو) أبو نصف كيلو بعشرين ألفاً والربح بألفي ريال، وأبو كيلو بأربعين ألفاً والربح ثلاثة آلاف.

الابن: هذه (دينموهات) صناعة يابانية..اخ..اخ.. فوق ما هدرت علينا دخل نصف نهار يا أبا اشتريت بضاعة عائدها قليل..كان المفروض تشتري (دينموهات) صيني قيمة النص كيلو خمسة آلاف ريال الربح المضمون عشرة آلاف، ولكنّ أنت عجيب غريب دائما أعوج.. تريدنا أن نعيش في فقر الله يفقرك.

صاحب محل الدينموهات: الذي هدر دخل النهار هو كسلك.. لو نهضت باكرا وحللت محلي في المحل لما هُدر الوقت.

الابن: والذي ضيّع كل النهارات هو (الدينموهات) الياباني حقك.. لو كنت اشتريت (دينموهات) صيني لكانت أرباحنا 200%.

صاحب محل الدينموهات: آه..أتعب يا ابني..أقول لك نريد نعيش شرفاء وبالقليل نبيع لهؤلاء الفقراء (دينموهات)أصلية ونربح القليل من المال والكثير من دعائهم وإلاّ نبيع لهم (دينموهات) نصف ميتة ونربح الكثير من المال والدعاء علينا..ترد عليّ بحقارة..أدعوك لمساعدتي في العمل..ترد عليّ بنذالة.. ماذا أفعل..ماذا أفعل؟

اخترقت حبيبات القات المنتشرة في الهواء..

: السَّلاَمِ وعليكما.

: وعليك السَّلاَمِ.. اتفضل.

: أنا أبحث على عمل.. أي عمل، منظف، مكنس، ملّمع، أي شيء..أجيد القراءة والكتابة.. معي شهادة إعدادية.

الابن: لا، ما نريد..ألا ترى أننا نحن من أنفسنا نبحث عن عمل.

بدا صاحب محل الدينموهات محتاجا لمن يساعده في المحل وبأجر زهيد يعفيه عن الحاجة لابنه المتغطرس.

* * *

**اسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس هنا في صنعاء بـ(المولّد)..كوني من أم حبشية وأب يمني..وبرغم أن ذَلِكَ اللقب المقزز يجذبني لعالم اللا هوية فإنني أتمنى ألا يكون سببا لرفضك إياي..درست حتى نهاية المرحلة**

**الإعدادية ومحتاج للعمل ..أي عمل.. يتيم الأب والأم..وعلى استعداد للعمل في أي وقت وأقبل أي أجر!**

تزداد بهجة صاحب الدينموهات بكوني يتيم وعلى استعداد للعمل طيلة الوقت..ورغم معارضة الابن فإنه فرضني عاملاً في المحل، في البداية دون تحديد أي أجر سوى توفير الطعام.

ومن فوري قمت بتنظيف المحل تنظيفا أبهج صاحبه..ورتبت بَعْض الدينموهات الموضوعة بعشوائية..وجمعت حبيبات القات المنتشرة في المحل ووضعتها في برميل القمامة..

وما إن غادرالابن المحل بحجة صلاة العشاء ولم يعد كعادته ناداني صاحب المحل وقال لي

: ما الذي تحمله معك دائما؟

: كيس به سجادة وقميص.

: هل تحمل بطاقة شخصية؟

: لا..وشرحت له قصتي كاملة.

: ما دليلك على ما تقول؟.

: دليلي هوهذا، وأريته القميص والسجادة الممزقة التي تعود لأبي.

انهالت دموع صاحب المحل بغزارة عندما رأى السجادة والقميص الممزق..لقد ذكّره بيوم هجره لقريته حاملاً قميصاً وسجادة وكيس النوم قبل ما يزيد على الثلاثين عاما.

قال لنفسه كلاماًمبهما غامضا لا يعي مساربه سواه.

قبل ثلاثين سنة..كنت أحيا في قريتي الواقعة في أطراف مدينة(عمران) حياة كل مزارع يمني بسيط يحلم بغلّة مربحة وأغنام في حالة صحيّة جيدة .. مع طلوع الفجر وحتى زواله أزرع أرضي ومع بدء المساء وحتّى الفجر نحلم أنا وزوجتي بأن يرزقنا الله أولاداً صالحين، ولكنّ الله ما استجاب لدعائي بالولد الصالح ولا أراد الخير للقرية..جفّت الأرض..وساد الجوع وهاجر رجال كثر..كنت أنا واحداً ممن هاجروا.. خرجت من القرية حاملاً كما حمل والدك قميصاً إضافياً وسجادة وكيس النوم ودموعاً على فراق زوجتي، وفي رحلة شاقة وصلت جيبوتي..هناك عملت جمَّالاً مع بَعْض العرب..ننقل القات والخضرة من حدود أثيوبيا الجنوبية إلى جيبوتي.. عندما كثر مالي افتتحت مع شريك لي محلاً لبيع المولِّدات الكهربائية..كَانَتْ تجارة رائجة في جيبوتي تلك الأيام والسبب أن جيبوتي كانت تتوسع دون أن يصاحب توسعها العمراني اهتمام الدولة بإيصال الكهرباء..تجارة جعلتني أجني الكثير من المال الَّذِي حصّن زوجتي وأبنائي غير الصالحين من الموت جوعاً ومكنني من زيارتها كل ثلاثة أشهر..لم أحتمل العيش في الغربة وحيداً فتزوجت بشابة جيبوتية وأنجبت منها أولاداً صالحين.. ثلاثة أولاد وبنتاً..مع كل ولادة لأحدهم كان مدخولي يزداد عكس أولادي غير الصالحين الذين مع كل ولادة لأحدهم يزداد فقري.

بلغ مالي من الكثرة ما دفعني للعودة لليمن..صار في وسعي فتح محل تجاري كبير خاص بي وفي بلدي اليمن..تركت زوجتي الجيبوتية وأولادي منها..كنت خائفا من رد فعل أولادي غير الصالحين عندما

يعلمون أن لهم أخوة مولّدين..ومع الوقت تناسيتهم..لذَلِكَ فأنا أشعر بك.

وكعادة الكرة الأرضية يحل المساء..ومع حلوله يحل ظلام دامس في قلب صاحب المحل.

الشوارع تفرغ..يشرّع صاحب المحل في إغلاق باب محله..

: يا ابني الساعة الآن العاشرة مساءً.. سنغلق المحل..لا بد أن تكون في المحل صباحاً، بالضبط الساعة السابعة صباحا..مع السَّلاَمِة.

ومن دون أن يسأل عن مسكني أو يعطيني بَعْض المال كمقدم يغادر..

وقفت حائرا أبحث عما حيّرني،لكنّ الحيرة لم تمنعني من السير متفائلاً لتخلصي المبدئي من الجوع والنوم خلف المولِّد الكهربائي للمستشفى الجمهوري ..سأتخلص من البرد والمخافة حتما!

بعد ستة أيام على بدء عملي في المحل استدعاني صاحبه وقال لي

: أنا سعيد لوجودك ..لقد أرحتني من أعمال كثيرة ولهذا سأقدمك أجر الأيام الستة الماضية وأزيدك أجرة الغد.

: العمل بالنسبة لي عبادة، بل أكثر من ذلك..إنه عبارة عن منقذ..شكراً لأنك وثقت بيّ.

: كلماتك تجذب قلبي كاشفة لي عن إمكانية العيش بنقاء رغم صعوبة الجمع بين نقاء القلب وقذارة الشارع..أمّا نظافة المحل فتجذبني للعمل بجد في المحل والبقاء فيه لفترة أطول..أنت ولد صالح..لا تغتر .. أأمل

أن تظل ثابتاً على التفاني والإخلاص..هيا خذ أجر الأسبوع الأول لك عندي.

تخلصت من النوم خلف المولّد الكهربائي واستأجرت بضمانة صاحب المحل غرفة بابها يطل على شارع في حي (وردة) بالقرب من تلك النافذة التي دون علمي مازالت تبكي..اشتريت فرشة صغيرة ولحافا مستعملا ومذياعاً صغيراً..اجتاحني كعاصفة موشكة على الهرب شعور بالبهجة، ولكنّ بهجتي لم تكتمل، إذ نجح ابن صاحب المحل من طردي صبيحة اليوم الـ27لبدء عملي في المحل بعد أن تعرّى مساء اليوم الـ26 طالباً مني توسيع فتحة مؤخرته!!

حاولت أن أشرح لصاحب المحل زيف ادعاء ابنه قيامي بالسرقة..قلت له الحقيقة..نعم ابنك غير صالح..شاذ..شاذ..ولكنّه هدد باستدعاء الشرطة لكوني بلا هوية..تركت العمل عائداً إلى غرفتي حزينا حائراً، وأنا أردد ابنك غير صالح..غير صالح.

كلمتا غير صالح هذه تركت وقعا كبيرا على صاحب المحل..وقع دفعه لترك المحل والسفر إلى جيبوتي بحثاً عن أولاده الصالحين من زوجته الجيبوتية..لقد قضى حياته وحلمه بأن يُرزق بأولاد صالحين ..هل سيجد أولاده من الجيبوتية صالحين؟..هل سيحقق أمنيته ودعاءه وتضرعه لله بأولاد صالحين.. إذا كان أولاده صالحين فهل يعانون كما أعاني أنا؟..

**اسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس في صنعاء بـ(المولّد) لأني من أم حبشية وأب يمني، ولكنّ ذَلِكَ اللقب المقرف وعيشتي الضنكى التي دفعت بصاحب المحل للعودة إلى جيبوتي والبحث عن أولاده لإنقاذهم مما ظن أنهم يواجهونه من ضنك أكدت خسارتي للعمل نهائيا وبلا أمل..!!**

: هل صار لأولاده شأن كبير كعادة الكبار!

لا إجابة!!

جلست قبالة باب الغرفة حائراً كعادة كل إنسان ابتلعته المحن..سيحل المغرب وبعده لن أجد طعاما كما كنت أجده في المحل..سيعود عصر جوعي.

وعلى صوت أذان المغرب ..وقفت..نظرت لباب الغرفة المغلق..

: عصر شبعي قصير كالربيع، ولكن عصر جوعي كالشتاء طويل وقاتل..هل سيعود عصر بردي أيضاً؟..

أدخلت المفتاح في القفل وأدرته ..وقبل أن أفتح بابها يعترضني رجل يرتدي لحية ماعز وقميص مناضل

: صلاة صلاة.

: صلاة..وأنا جائع.

: صلاة ولو كنت تموت جوعاً..هيا..والله ما خرّب الإسلام والبلاد إلاّ أمثالكم.

ويشدّني إلى الجامع..أصلي والجوع يفتك بي..كل أنواع الديدان المستقرة في معدتي تكاد من فرط حاجتها للطعام أن تخرج من فمي وفتحة شرجي..بدا إمام الجامع ورعا لكأنما الملائكة ألبسته من ملابسها!!

بدأ الصلاة ..وصلينا.. وقبل انتهاء الإمام من التسليم يخرج الملتحي وهو يواصل حديثا بدأه بينه وبين نفسه مع بداية الصلاة.

: حذائي..سمع الله لمن حمدا ..لا يسرق..الله اكبر..أولاد اللصوص كثار..سبحان ربي الأعلى..

: للفقر حسنة واحدة تتمثل في أنه يمنحك المجال للصلاة وبحرية تامة وبأمان كبير ..إذ لم يكن لدي ما أخاف عليه من السرقة كالخف المغري أو الحذاء الجاذب للصوص ..أكملت الصلاة مع المصلين وعدت إلى غرفتي.. وأنا أردد

: نعم..هذه حسنة وربما أجد حسنات أخرى.

أفتح بابها..تجدني بقايا كسر صغيرة من بسكوت..للاستلذاذ بها أبللها بريقي وأمتصها..يقترب الملتحي وهو يحمل بقايا خبز وبقايا قات..

: اطمأنيت لعدم تعرض حذائي للسرقة وأحضرت لك شيئا..بحثت عنك في الجامع فلم أجدك..ألم أقل لك أن تنتظرني..عاصي..خذ كل وخزّن ولا تنس الصلاة..

: أنا لم أنس الصلاة، ولكن الصلاة هي من نسيتني؟

: يبدو أن الجوع جعلك تهذي..إلى اللقاء.

والتهمت الخبز..وعندما لم يُشبعني..حشوت القات في فمي..الناس يتعاطون القات للحصول على النشوة وأنا أتعاطاه لإشباع معدتي!!

على بعد زمني مقداره خمس دقائق من منتصف الليل، وبينما كنت جالسا أمام باب الغرفة المطلة على شارع (وردة) حائراً لا أدري ماذاأفعل، ظهرت شابة نصف إنسية ونصف جنية..أقصد نصفاً تراه فيها خاصة مع ظلام هذه البلاد ونصفاً لا تراه.

مساء هذه البلاد وعسكرها يستنكرون وجود الرجل عند منتصف الليل في الشوارع فكيف بالأنثى؟

: هل تعتقد أنها عاهرة طردها العاهر بعد أن أفرغ كل ما في عضوه الذكري!؟

لا، لا يبدو أنها تحمل علامات العاهرة، والتي منها رائحة العطر والكعب العالي والحقيبة المزركشة.

لا، لا أدري لِمَاذَا ارتبطت الزينة والنظافة في هذه البلاد بالمرأة العاهرة واللازينة والقذارة بالمرأة الشريفة؟

: هل تعتقد أن زوجها الفقير اختلق مشكلة بسبب عدم قدرته على توفير العشاء، واتخذها سبباً ليطلقها، ومن ثم طردها وأنها الآن تسير إلى بيت أهلها؟

لا، لا يبدو أنها حزينة أو باكية أو خائفة فخطواتها واثقة.

: هل تعتقد أنها عذراء هربت دون إبداء الأسباب من بيت أهلها إلى المجهول؟

لست محققاً حتى أطرح عليّ الأسئلة، وفي نفس اللحظة أجمعها في سلة الإجابة اللعينة، بل سأدعها تسير..

اقتربت ببطء نحوي

: السَّلاَمِ عليك.

: وعليك السَّلاَمِ.

: تقيم في هذه الغرفة؟

: نعم.

: يقيم معك أحد.؟

: تقيم..يقيم..أسئلتك تخلو من (الهلهلات) وكأنك تعرفين الإجابة مسبقا.

: أعرف نصف الإجابة مسبقا وأريد معرفة النصف المتبقي..هه..هل يقيم معك أحد؟

: لا.

: الوحدة فظيعة..هل تريد أن يقيم معك شخص؟

: لِمَاذَا؟

: لست محققة حتى أطرح عليك الأسئلة وفي نفس اللحظة أجمعها في سلّة الإجابة اللعينة باحثة عن إجاباتها منك، لكنّ سأدعك تقرر مسألة إقامتي عندك الليلة فقط.

لم أتردد في تنفيذ طلبها..ليس لرغبتي في احتضان أنثى أو رغبتي في عدم البقاء وحيدا، أو لتجاربي المريرة في النوم في العراء،والتي أتمنى ألا يمر بتجربتي تلك، أحد ولو لليلة واحدة..أو لعدم استيعابي

مدى خطر إيواء أنثى هاربة من المجهول في منتصف الليل..أولأجل أي سبب يدور في ذهني!

تركت (أوأواتي) جانباً ونظرت للحقيقة التي همست في فتحة أذني الشبيهة بفتحة صنبور الماء

: لا تصبغ على نفسك المثالية فأنت لست كذلك..

: نعم لست مثاليا ..سأعترف.. كنت أرغب وبشدة في قتل الخوف.. الرقم (3) من الثلاثي المدمر..ورغبتي تلك كانت تتطلب تجربة الوقوع في أسره والخلاص منه ..الخوف من إقامة أنثى لا أدري كنهها عندي!

انسحبت الحقيقة معيدة لي (الهلهلات)

هل أهلها يحملون السلاح كعادة هذه البلاد؟. هل ارتكبت جريمة..هل..هل؟

لست محققاً حتى أطرح عليّ الأسئلة، لكنّي سُأدخلها إلى الغرفة..تدخل..تُمدد جسدها على فراشي.. أفرش كيس والدي وأتمدد على أرضية الغرفة.

: نامي..تنطفئ الشمعة.

يسود الظلام أرجاء الغرفة

: ألا يوجد مصباح كهربائي في غرفتك؟

لم أجبها، وإن أجبتهابتخلصي من المصباح بسبب صاحب الغرفة،الذي كلما رآها مضاءة صرخ في وجهي..فاتورة الكهرباء ستزيد..فماذا ستفعل لي، بالطبع لا شيء!!

: إلا تسألني عن سبب مجيئي إليك وفي هذا الوقت المتأخر؟

لم أجبها..لأنني لم أكمل التجربة بعد!!

: ما دمت لا ترغب فسأعرّفك بنفسي..أنا إنسانة تقف في المنتصف تبحث عن الخلاص من قيود حياتية أثقلت كاهلها المثقل أصلاً بمتطلبات لا تقف عند حد ولا تعترف بحقي في أن أكون بقليل من الحرية إنسانة بحجم مجرة درب التبانة.

: في بعض الأحيان يوقف المجرب تجربته نتيجة تنبهه لأمر جانبي، لكن كلماتها التي تنبه من لا يتنبه لم توقف عزمي على إكمال التجربة وإنجاحها!

: ما بكَ؟

: لا أستطيع الحديث في الظلام.

: ألا تطلب مني خلع النقاب الَّذِي يغطي وجهي؟.

لم أجبها..

تفتح عيناها بقوة..ينطلق منهما ضوء قوي ينتشر في الغرفة..مشهد خروج الضوء من عينيها لم يكن أسطورة أو سحرا، بل كان حقيقة لا تستطيع فعلها سوى الأنثى وحدها ..الأنثى القادرة على إضاءة عالمنا المظلم هذا..هل سبب تعاستي إن كل من حولي من الذكور؟. قطعت سؤالي بمناشير الأمل

: وفرّت الضوء..حدثني ما بك؟

: في بعض الأحيان يوقف المجرَّب تجربته نتيجة تنبهه لأمر ما في سياق تجربته، لكن ما فعلته أوقف شعر رأسي وعانتي معا!

: نصف خائف.

: ممَ؟

: منك ومن....!

: مني لا تخف ..ساعات قليلة ويحل الصباح ولن تراني نهائيا.ما هذا..وتشير إلى كيس النوم والقميص والسجادة.

: أشياء تخصني وتخص أبي رحمة الله عليه وتخص كل مهاجر يمني.

: وهذا..تشير إلى المذياع.

: مذياع.

: هل أنت مولع بسماع الإذاعات؟

: إنه الشيء الوحيد الذي يعيد لي عقلي في ظلمات الليالي خاصة أن كلفة تشغيله بسيطة.

: سأشتري منك المذياع.

وتُدخل يدها في جيب يكمن بالقرب من فرجها وتخرج مالاً تعطيه لي.

: هذا قيمة المذياع وأضيف قيمة الإقامة عندك لهذه الليلة.

إشباع جوعي خير من الحفاظ على مذياع تعتقد نشراته أنها تعيد لي عقلي ..خرجت واشتريت طعاما.. من شدّة جوعي أكلت ما اشتريته أثناء عودتي إلى الغرفة.

عندما عدت للغرفة كَانَتْ الشّابة قد كشفت عن وجهها واستغرقت في نوم يشبه نوم أهل الكهف..لم تكن بشرية عادية حتى أفكر ومن ثمة أخطط وأنفذ في تلبية الرغبة الجنسية بعد تلبية رغبة المعدة بالطعام، بل ألقيت بجسدي على أرض الغرفة واستغرقت في النوم، غير عابئ للديدان المستقرة في معدتي والتي تشاركني نصف طعامي إلى أن

حل صباح كَانَتْ تتفادى شهرزاد كوارثه بحكاية، لكنّي لم ولن أتفاداه بشيء.

أعلنت عن موتي من جديد عندما صحوت..النوم يشعرني بأني حي..لم أجد الشّابة..كَانَتْ قد غادرت الغرفة من دون أن تأخذ المذياع الَّذِي اشترته مني أو حتى تودعني.

غادرت تاركة علامة استفهام كبيرة في رأسي الَّذِي لا يشبه أي رأس في العالم..ما حدث معي في الأربعة والعشرين ساعة الماضية بدا كحلم ..شاب أمرد يأمرني بأن أوسّع فتحة شرجه مقابل استمراري في العمل، وشابة تعطيني مالاً وأشياء أخرى لم أطلبها، مقابل لا شيء.

ارتباطات متشعبة لفكرة أحالتني إلى تساؤل

: ما علاقة الجنس بالمال والطعام والعمل.؟

فكرة دفنت ارتباطاتها، ومن دون أي تفكير في كوكب المريخ.!

أتفحص الغرفة..لا أحد..أنظر في الفراش الَّذِي نامت عليه الشّابة..أقترب..عليه آثار رائحة عطرة..أتشمّمه كذئب..غادرت، لكنّ رائحتها باقية..رائحة تشبه الريحان..

وبينما كنت مستغرقاً في شم الريحان يطرق صاحب الغرفة الباب نصف المفتوح.

: الإيجار.

أتردد

: الإيجار.

: نعم.

الشّابة نصف الإنسية أعطتني مالا مقابل شراء المذياع..أخرجته..أعده..غريب..إنه يعادل قيمة إيجار الغرفة لشهر..أعطيه.

: يبدو أنك مستقر في العمل لدى صاحب المولِّدات..أتمنى لك الخير أيّها اليتيم..إلى اللقاء.يغادر..

بين ليلة وضحاها، ومن دون أن أتوقع أحصل على عشاء وقيمة إيجار ورائحة ريحان..هل كنت مستحقاً لأن أقضي (16) ساعة بعد طردي من عملي مُتلطما بين الخوف من طردي من الغرفة والجوع من التهام الديدان لمعدتي؟

إنه الحب عندما يعطي.. هل هو الحب؟..أي حب !

وأخرج من غرفتي ولساعات أبحث عن عمل بلا جدوى..من يريد أن أعمل عنده..يطلب هويتي وأنا بلا هوية..المدرسة التي درست فيها الابتدائية..سأعود إليها وأبحث عن أي شيء يثبت هويتي..

وانطلق..لم يكن في المدرسة أحد..كَانَتْ فارغة..طرقت الباب مرات عدة..قال لي بائع مثلجات يتخذ من الشارع المطل على المدرسة مكانا لبيع مثلجات إن الحارس غادرها برفقة أشخاص أبلغوه بتعرض ابنه لحادث سيارة مريع، ولا أعتقد أنه سيأتي الليلة أو غداً.

نبتت فكرة..عجزت عن مقاومة امتداداتها في رأسي..خططت وبدأت بالتنفيذ.

وأتسلق جدار المدرسة..أصل للكنّترول.. أكسره..

الملفات كثيرة..متراكمة بعشوائية..وأبحث عما يخصني في الدفاتر الكبيرة..أزيح الملفات جانبا.. ملف لطالبة اسمها سراب.. انقطعت عن الدراسة في الصف الثاني إعدادي..تستوقفني صورتها.. تشبه تلك التي أقامت في غرفتي.. ثمة ملامح مشتركة بينهما.. أنستني هويتي الضائعة..بمقابل ذلك ذكّرتني بتجربة قتل الخوف عبر خوضه.. خفت .. طرقعات للجن والذين يتخذون من المدرسة سكنا لهم دقات قلبي..

: قمّة الخوف يكمن في الاقتراب من الجن.. وقمة الغباء أن أستمر!

تقترب الطرقعات ومع اقترابها يتردد قلبه بين زيادة نبضاته وبين إيقافها نهائيا!

تدخل جنيّة مثل إعصار هادئ وهي تحمل كتابا..

تداخل واقع صادق بمخيلته التي تحتفظ بكم لا بأس به من حكايات الأشباح والتي سمعها على لسان نساء القرية خلق لديه واقعا جديدا ..هو مزيج من واقع متخيل.!

: ماذا تفعل في مسكني؟

بلعت برازي

: أبحث.. أبحث.. أبحث عني.. نعم أبحث

: هنا في مسكني!

أخرجت ما بلعته عبر فتحة عضوي الذكري!

: نعم هنا..

: قل.. ماذا تبحث وإلاّ أحلتك إلى هلام!

: اسمي صادق..ويلقّبني الناس هنا في صنعاء بـ(المولّد) لكوني من أم حبشية وأب يمني.. ماتت والدتي ولحقها ولدي وفي وقائع مؤلمة أصبحت بلا هوية ولا أمل .. لهذا تسللت علّي أجد ما يشير إلى هويتي في (كنترول) هذه المدرسة التي درست فيها في السابق.

: هوّيتك!

: نعم هويتي!

كمن سقط كوكب المريخ على رأس الجنيّة

: حسبتك مدسوسا من الشيطان..

: لا أنا مدسوس من قبل (الهويّة)

: أنا أيضا أبحث عن هوّيتي والليلة انتهيت من البحث في هذا الكنترول ولم أعثر على ما يشير إلى هويتي.

: وهل للجن هوّية!

: نعم.. ولهم قضايا مشتركة مع البشر ..فمثلا قضيتك وقضيتي واحدة ولأننا نشترك في قضية واحدة سأساعدك..هل انتهيت من البحث في كل الملفات؟.

: لا..

: إذا .. فاحفظ كل سطر في هذه الملفات..نحن بنو الجن نتمتع بمميزات منها أن كل ما نقرأه نحفظه عن ظهر قلب.

: اسمي صادق ودرست في هذه المدرسة قبل ست سنوات.

: لحظات.. سأبحث.. صادق.. صادق.. صادق.. صادق.. لا يوجد ملف باسم صادق في الفترة التي حددتها.

: متأكدة.

: ألف في المائة!

: ما دليلك؟

: دليلي أثار غابرة لملف كان هنا..ملف سُحب من هنا.

: لا أمل.

: نعم لا أمل.. هيا ..غادر هذا المكان.

: حسنا.. لكن من أخبرك بأنكِ قد تعثرين على هوّيتك في ملفات خاصة بالبشر؟.

: هذا الكتاب.. ففيه أسطورة قديمة تقود نهاياتها إلى كل (كنترول) في كل مدرسة !

: تفيد.

: انظر في هذه الصفحة ..تقول بأنه ومع بداية ما تسمونه الحياة على الأرض قام الجزء المظلم فينا، تسمّونه أنتم (الشيطان) بسرقة أسمائنا وهوّياتنا وإخفائها في الأرض..وتحديداً خلف أسماء البشر.. وحسب بحثي لم أجد سوى (كنترولات) المدارس من تتركز فيها الأسماء بكثرة.

: ولماذا أقدم جزءكم المظلم على هكذا عمل جبان؟.

: لا يريد البقاء وحيدا في الأرض .. أراد جرنا معه!

: أنتِ لست حقيقية .. أنتِ مجرد حكاية سمعتها ذات مرة من أبي.

: وأنتم مجرد أساطير لا أطيق سماعكم.. هيا غادر المكان قبل أن يأتي أحد من البشر!

: حسنا..سأغادر ولكني وجدت ملفا قد يفيدني.

: خذه.

وأخذ ملف سراب..أغادر.. في الخارج وفي ركن مظلم أتمعن في صورة الصبية..صعقة تؤكد شكوكي..أنها سراب..سراب!

الشّابة التي ظهرت لي تلك الليلة هي سراب..جارتي..سكنت على مقربة من بيت والدي..لم يصدمني أن نافذتها هي من كَانَتْ تبكي..جاءت من بيتها مستغلة استغراق أمها في النوم، وعادت إلى البيت قبل الفجر لأنني لم ألحظ ذَلِكَ.

سراب..إبنة جارنا – لا أتذكر اسمه– الَّذِي قتل نتيجة ثأر وهي تكبرني بخمس سنوات..كَانَتْ تحضر مع أمها (نعمة) إلى بيتنا لزيارة أمي قبل مقتل زوجها زائرة عادية، جارة لجارة، وبعد مقتله وفقدانهما لمصدر الرزق لم تعدان تحضران للزيارة، بل لتعلّم الخياطة والتطريز من أمي، التي تعلمته بدورها في إثيوبيا على يد ثلاث من كبار المدربات الأثيوبيات.

لقد تمكّنت أمي بقلبها الشبيه بالمحيط الهادئ، ولغتها العربية المكسّرة التي تفيض حبا وأملاً،أن تقنع نعمة بألا تعتمد على المساعدات في عيشها هي وابنتها، بل تعتمد على نفسها..حرفة تحترفها وتغنيها عن سؤال الناس..علمتها الخياطة والتطريز..خياطة وتطريز سببت نجاحا كبيرا لها وكَانَتْ سببا لأن تدر الكثير من المال،

وذَلِكَ لأنها واءمت بين الملابس النسائية اليمنية والروح الإثيوبية..خياطة إثيوبية بملابس يمنية..

لم أعد أتذكر تلكم الأحداث لأنني كنت أثناءها صغيراً..وكل ما أتذكره هو طيف لسراب وبكاء أمها نعمة على فقدها لزوجها..الحقيقة أن سراب هي من ذكّرتني بتلك الأحداث..

لم تعد سراب كما كانت في السابق..لقد كبرت وبرز نهداها وصار لها وجه أبيض كالزبدة..طيف سراب الذي أتذكره جيدا ليس هو سراب الآن..تمنيت ألا أتعرض للخدعة..تمنيت أن تخونني ذاكرتي لكي أقول لها لست أنتِ سراب، لكنّي وتحت وطأة مديحها لأمي توقفت عن التفكير مقتنعاً بأنها سراب..سراب..

لكنّ هل هي حقا سراب؟..سراب ماضيا وحاضرا..لم تغيرها الأزمنة والمطامع والمصالح ككثير ممن عرفتهم .. أمثال عمي حمود، ولكنّ قد تكون مثل عمي الأصغر فهد ومبخوت الحكيم لم تغيرها الأزمنة والمطامع؟!

: هل عرفتني؟

: عرفتك كما أعرف نفسي.

: وهل عرفت نفسك؟

: سؤال محير..إذ مازلت أبحث عنها.

: ومتى ستجدها؟

: عندما أجد هويتي؟

: وأَيْنَ هي هويتك؟

: إنها ضائعة.

: ابحث عنها حتى تجدها

: الأوراق التي تثبت هويتي أحرقها عمي الكبير والأملاك التي كانَتْ من حقي، بالتوكيل اشترى لنفسه كل ممتلكات أبي.

: لا، لا أتحدث عن أوراق، بل عن ذات..ذاتك أنت!

: ذاتي أنا..أنا..أنا ضائع..تائه..بَعْض أفراد المجتمع ينعتونني من باب السخرية بالمولّد، والبَعْض الآخر يتمنى تفجير وجهي بقنبلة..لماذَا؟

: لأَنَّكَ تشبه أمك الأثيوبية كثيرا، فلقد أخذت لون بشرتها المائل للسواد، أمّا ملامح وجهك وتقاسيمه فهي ملامح وتقاسيم أبيك رحمة الله عليه.

: أمي..لقد ماتت مبكرا وعلى غير عادة البشر!

: الله يرحمها..إنني وأمي لن ننسى فضلها ما حيينا..لقد علَّمتنا حرفة بواسطتها حصّنا نفسينا من الفقر والحاجة والعوز وحققنا مكاسب كثيرة، لدرجة أن كل من تقدموا للزواج بأمي أثبتوا حبهم لمالها، فمن سيعشق امرأة أرملة، لا تتمتع بخصلة واحدة من خصلات الجمال مثل أمي..بالتأكيد لا شيء يغري سوى المال..أمّا من تقدموا للزواج منّي فقد أثبتوا حبهم للمال أيضاً..كيف..الحكاية تطول..قل لي.. هل حقا جرى لك ما جرى ولا مخرج أمامك سوى العثور على هويتك في الأوراق؟

: نعم..صرت بلا هوية ولا حق..صرت ضائعا..تائها..بلا أحد.

: أمرك محزن..هل يمكنني مساعدتك؟

: أريد استعادة هويتي..أريد ما يثبت أنني ابن أبي..إنني أعاني أيما معاناة من فقدان هويتي.

: لكنّك لن تصل إلى مبتغاك دون أن تجعل الحب مبتدأك والوفاء طريقك والطيبة منتهاك..عنوانك الصدق..ونهجك الإخلاص.

: من أَيْنَ تعلمت كل ذَلِكَ الحب؟

: من أمك؟

: أمي..!

: صحيح أنها كَانَتْ صاحبة وجه أسود وبَعْض الجارات كنَّ يسئن إليها، لكنّ قلبها كان نقيا كالسحاب وعقلها حكيما..إنها معلِّمة وإنسانة حقيقية..لم أتعلم منها أنا وأمي الخياطة والتطريز التي حققت لنا الكثير من المال وحسب، لكنّي تعلمت منها معنى أن تحيا من أجل جعل المحبة رسالتك في هذه الدنيا، وليس من أجل جعل رسالتك هي محبتك للدنيا.!!.

: آه..نعم انعدام المحبة هو سبب ما وصلت إليه؟

: عموما لا تشغل بالك بما فات بل انطلق وابدأ..استعد أوراق هويتك وانطلق في رحاب الحياة..ألك أعمام غير عمك الكبير

: نعم لي عم، اسمه فهد.

: إذا، فليس أمامك من حل سوى اللجوء إليه علّه يحقق مطلبك.

: ولكنّ عمي حمود أقسم الأيمان المغلَّظة بأن يقتلني إن عدت للقرية ويقتل عمي فهد إن أواني.

: هل تعرف أن الله جَعَلَ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً؟

: نعم.

: إذاَ، ففي الليل سيكون عمك غارقا في سباته.. استفد من الليل واذهب إلى عمك فهد وحاول معه علك تنجح في إقناعه بمساعدتك في استخراج هويتك..

: وإذا لم أنجح؟ وهذا شيء أنا متأكد منه.

: جرِّب هذه.

تقترب سراب وبحركة حنونة تمسح شعري..أمي فقط من كَانَتْ تجيد تلك الحركة الحنونة..إنها حركة تشعر كل أحياء العالم بالحنان.

: إذا لم ينجح الحنان؟ وهذا شيء أنا واثق منه كما أثق في قسوة قريتنا.

: سأعيد لك كلمات تعلمتها من أمّك. كلمات فيها من الطيبة والمحبة ما يذيب الصلب ويحيل البركان إلى جنة!

: الكلام يعجز عن الصمود أمام بندقية عمي حمود

: أرسل له أشخاصا يجلّهم ويحترمهم.

: أشخاص..نعم لديَّ شخص..الحكيم إنه الحكيم ولا أحد غيره..لقد ترك القرية وفتح مطعماً صغيراً بالقرب من نقطة صنعاء..سأبدأ بإقناعه وأخذه لعمي، لكنّي لا أملك مالا للسفر للقرية.

: المال أوجده الإنسَان لكي يشق له طريقا للمحبة ..خذ مني ما يكفيك..هناك ما هو أهم من المال.

: ما هو؟

: أن تجد المتنفس الذي يزوّدك بكميات كافية من الأمل..يدفعك بعدها للانطلاق مبتهجا ومصمما على قضاء حاجتك.

: المكان الوحيد هو قبر، ولكن ثمة من يعيق طريقي في الوصول.

:من؟

: الحفار..

: لا فعل ينتج من العدم ..

: يظن أنني على علاقة غير شريفة مع ابنته..

: كيف؟.

: يظن أنني رأيت وجه ابنته.. اعتبر انكشاف عورة ابنته على غريب أمرا خطيرا لا يعالجه سوى القتل!

: نعم، في اليمن وجه المرأة عورة!.

: والحل ..

: الحل..آه.. طرأت في بالي فكرة تتمثل في التسلل إلى المقبرة ليلا وهو غارق في سباته.. بهكذا ستتجاوز عقبة الحفار وتزور قبر أمك ..وبعد أن تتزود بالطاقة والأمل عد إليَّ حتى أعطيك ما يكفيك للسفر.

* * *

**اسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس هنا في صنعاء بـ(المولّد) لكوني من أم حبشية وأب يمني..وبرغم ذلك فإنني سأنطلق إلى قبر أمي الحاني، ومستغلا الليل سأتسلل إلى المقبرة كي أتزود بالأمل وبعدها سأنطلق..**

وأتسلل إلى المقبرة من فتحة صغيرة تقع على جانب السور..
فتحة ثقَّبتها دبابة جندي غبي في أحداث حصار صنعاء.
وأسرع ..أصل قبر أمي..اتسمّر قبالته..

**ضريح أم صادق (ادانش)..توفيت بتاريخ ...13هـ ...19م**

وقبل البدء في الصلاة على روحها أدمع..تتسلل الدمعة ..تسقط بالقرب من حشرة عطشه كانت مارة ..تبتهج..حصلت على الماء..طعم الدمع منفر..أثره كأثر السم بالنسبة للحشرات..ولكن شدة العطش دعتها لمواصلة الشرب..

وبينما الحشرة تتأهب للموت مسمومة وأتأهب للصلاة على روحها يخرج الحفار من بيتها الطيني الصغير، والواقع في الركن الغربي للمقبرة.. وفي خطوات سريعة تنم عن معرفته بدقائق القبور يركز نظره باتجاه خزان الماء الخاص بسقاية قبور الموتى والرابض كميت وسط المقبرة..أتخفّى..أتمدد بجانب قبر أمه لكيلا يراني الحفار..

آه.. ما أجملها من أم، حتّى وهي ميتة توفر لي غطاءً يخفيني من عين الحفار اللعين ويحميني من لسانه الكريه..ويحفظني من فأسه..
يتفحص المقبرة..يركز مرة أخرى نظره نحو الخزّان..يعود لبيته.

هو مجرد حفار قبور شيِّدت المستشفيات والجامعات الطبية الخاصة في عهده كي تشجعه على سرقه جثث الموتى وبيعها بأسعار زهيدة.. بساطة حياته تقول إنه مكتف من عمله موظفا في وزارة الأوقاف والإرشاد بدرجة حارس مقبرة وحفار إلى جانب قيامه

بعمليات حراسة المقبرة ورعايتها، لكن تلك البساطة كانت مجرد ذر للرماد..

أمي..مساء الخير أيتها الرائعة .. جئتكِ الليلة ممتلئا كدرا فظيعا وهمًّا وألما..جئتكِ مفرغا من الأمل ..فامنحيني الأمل ..الأمل كي أمضي في طريق الحياة الشائك واثقا..أمي..يا أمي.. لي قلب من روح قلبك..أعطيتني إياه..ولي الوحدة والفراغ والموت الكئيب..إن كان لي رجاء فرجائي أن تمنحيني الأمل.

بعض الأساطير حقيقية وخروج أمي من القبر من ذلك البعض.. تزوّدني بالأمل.. تضخ كميات كبيرة منه.

تنفست ..شعرت بكمية كبيرةمن الأمل تخرج من قبرها وتغمرني.

تعود إلى قبرها.. تبكي في القبر.. لن تتمكن من بعد غد الالتقاء بي.. لقد قرر الحفار نبش جثتها وبيع عظامها لأحد المستشفيات التعليمية!

* * *

**اسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس في صنعاء بـ(المولّد) لأني من أم حبشية وأب يمني، ولكنّ ذلك لم يمنعني من مغادرة المقبرة من دون أن أعلم بما تخبّئه الأقدار..**

خطوة .. خطوتان.. ثلاث خطوات وأتوقف متنبها..تظهر من خلف خزان المقبرة امرأة شبه عارية .. لم ألحظها منذ بداية تسللي.. تتميز بفم كبير يشبه وجه كلب حزين.. كمن انتهت من الاغتسال ..تمسح جسدها الذي يشبه طريقاً ترابياً سداسي الشكل بخرقة تسمّى

"منشفة "وترتدي ملابسها ..يطل الحفار من باب بيته ..اتسمّر في مكاني فلا مجال للعودة والاختباء بجانب قبر أمي ..حركة واحدة وانكشف.

لم يكن الحفار واثقا ألا أحد في المقبرة سيتلصص على زوجته خصوصا أن الباب مغلق بإحكام والوقت متأخر والموتى لا يرون أحداَ لذلك كان يطل بين الفينة والأخرى.

هو حفار.. من وجهه نظر سكان حي (وردة) طيب وخلوق، لكنه من وجهه نظر زوجته شرير..شرير.. شرير.

: أين أنت يا عاهرة.. يا ابنة العاهرة.. لماذا تأخرتِ؟

تعود فكرة عري الإنسان لتسيطر عليّ..عري ابن صاحب المحل ..عري وجه تلك الشابة..عري هذه المرأة ...

يلاحظ الحفار وجودي

الحفار غاضباً: ادخلي البيت بسرعة .. يصرخ.. أنت يا ابن الكلبة يا طرطور..من سمح لك تدخل المقبرة من السور يا..يتنبه..آه ..إنه أنت من كشف عورة ابنتي.

: أمي عندكم..جئت لزيارتها..أنا آسف..

وانطلق..

: في المرة الأولى تجاوزت حدودك ونظرتك إلى عورة ابنتي وفي هذه المرة نظرت إلى زوجتي عارية..

لو كنت شخصيا مكان صادق لحملت أكبر حجرة في المقبرة وقذفتها بقوة صوب رأس الحفار، لكنني مع الأسف لم أكن قادرا على حمل الحجرة وذلك من وطأة حمل الخوف من الحفار!

يتراجع الحفار إلى مسكنه الواقع في الطرف الغربي للمقبرة مترحما عليها.

يترحم وهو لا يرحم..يبيع صكوك الغفران والرحمة للموتى ولا يستطيع أن يبيع صكا واحدا يرحم به زوجته هذه..آه كم في هذه البلاد من أوغاد..أمرق من فتحة السور بسرعة البرق ..يعود الحفار إلى بيته

: يا بنت الزانية شاهدك هذا الصبي وأنتِ تغتسلين؟

الزوجة: أصبحت شتائم مثل قحبة وزانية عندي عادية، لكن ما أريده منك أن تعرف أني زوجتك ..أتفهم ما معنى زوجتك.؟

الحفار: لا ما أفهم ..ما أفهمه هل نظر لك هذا الصبي وأنتِ عارية؟

الزوجة: لا ما شاهدني إلاّ وأنا مرتدية ما يغطي ثديّ وفرجيّ..

: وما الضامن لصدقية ما تقولين؟

: لم أرتد ملابسي إلا خلف الخزان!!.ويا زوجي إذا كنت تريدان لا ينظر أحد لي أو لابنتك ابن لنا حمَّاماً وأوصل له الماء..سنين وأنا اغتسل بماء الموتى ..أتمنى يوم اغتسل في حمام؟

الحفار: أمنيتك قيد الدراسة والبحث.

الزوجة: إلى متى؟

الحفار:إلى أن يأذن الله.. هيا تعالي الآن نصلي صلاة الفجر

* * *

وعدت إلى سراب ..متفائلا، لكنه التفاؤل الذي غلّفه الحفار بالخوف..غنيت بالقرب من نافذتها تلك الأغنية التي اتفقنا على أن تكون الإشارة التي تعرّف بوجودي

أخذ قلبي وراح..

وشق صدري لاعيان الصحاح..

يا طول همي.

هذه المرة بدلا من أن تهطل الدموع من النافذة هطلت الأموال!

* * *

**اسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس هنا في صنعاء بـ(المولّد) لكوني من أم حبشية وأب يمني..وبرغم ذلك، فإنني سأنطلق إلى القرية..الزبيري..باب اليمن..بيرعبيد..حزيز..نقطة صنعاء..**

ترجلت..أَيْنَ الحكيم..ها هو ذا هنا..

: أريد إثبات هويتي..الحصول على ما يثبت هويتي

الحكيم: الأوراق لا تمنح الإنسَان هوية.

: لكنني عاجز.. لا أستطيع السكن إلاّ بتلك الورقة الحمقاء ..لا أستطيع العمل إلّا بنفس تلك الورقة الحقيرة..

: تلك الحقيرة وأن حصلت عليها فلن تمنحك الهوية.!

: لماذا؟

: لأنك هجين..والهجناء ضائعون في هذه الأرض..لم أسمع خلال إبحاري في شواطئ العالم هجينا يفتخر بالانتماء لوطن واحد أو حتى يُسمح له بالافتخار!!.

: وهل الفخر في الانتماء فقط؟.

: لا، أعظم الفخر هو الذي يقودك إلى اكتشاف معنى وجودك في الكون.

: أريد أن أفخر بنفسي.

: أريد لك ذلك..هل تعلم أني من أشد المفتخرين بنفسي.

: أشعر بذلك..

: نعم ..قل ما تريد؟

: خذني إلى القرية..

: سر إليها وحدك.

: خذني لإقناع عمي بإعطائي ما يثبت هويتي.

حكيم القرية، الَّذِي وافق على العودة للقرية، اشترط أن يخبرني بقصة خروجه منها..وافقت على سماعها دون حساب المخاطر التي قد تنتج عنها!

: في بداية شبابي وتحت تأثير فراغ شديد خيّم عليّ وظلام أشد خيّم على قريتك، صعدت إلى سطح بيتنا..ظللت لساعات أتأمل السماء..مرة أعد تلك النقاط المضيئة فيها، ومرة أتخيّل حكاية تلك الجنية التي أرعبتني بها أمي في صغري وهي تهبط من السماء لتأخذني لأنني لم أطع والدي..تهيأت لي التأملات كملكة جمال تمسك بيدي

وتقودني إلى الشعور بلذة هائلة..لذة لا تشبهها لذة الطعام والوادي والغنم والحبيبة..تلك الليلة اللذيذة اكتشفت ممراً سحريا للذة أخرى، لكني لم أكن أعلم أنها لذّة التأمل ذاتها..صعدت في الليلة التالية للسطح..واستغرقت في استطعام لذة التأمل..ممره السحري قادني إلى فضاءات، والفضاءات قادتني إلى اكتشاف أبواب ونوافذ السماء، ولأن جهل من حولي بتلك النقاط المضيئة كان متفشيا ويتوقف عند حدود قدرة الإله، قررت أن أكتشف ذلك بنفسي.. ولكن كيف..كان ذلك السؤال العصي الذي شلّ قدرتي على الاستمتاع بلذة التأمل..في الليلة المائة بعد السادسة وأنا مستغرق في لذة لم يعد لها طعم، هبطت تلك الجنية التي أرعبتني في صغري، وكشفت لي ممرا واقعيا يمكنه أن يكشف لي أسرار تلك النقاط المضيئة في السماء وبها أستطيع معاودة الاستمتاع بلذة التأمل..والممر تمثل في مغادرة القرية بحثا عن المعرفة ..وبالفعل غادرت القرية..كلما تزودت بمعرفة شدني العطش إلى معرفة أخرى، وهكذا حتى وصلت إلى شاطئ ومنه إلى سفينة ومنها إلى شواطئ عديدة في العالم ..تشربت المعرفة كثيرا ..وتحت وطأة ظروف قاهرة عدت للقرية محمَّلا بها..قلت للجنّية إني عدت محمَّلا بالمعرفة..وصرت أعرف ما يعني هذا الكون الشاسع وما تلك النجوم والدروب والمجرات..قالت لي..ما دمت قد عرفت ما يعني الكون فهل تعرف أين مركزه..بالطبع لم أكن أعلم..مركزه هو أنت ..وتحديداً قريتك تلك..أنظر إليها وإلى بؤسها وجهل ناسها..كيف تريد أن تعي أنها المركز والكون هو الأطراف، من دون أن تحقق ذلك فعلا..إنها تحتاج

للبناء..للبناء..هبّت عاصفة من نثار الخشب واختفت تلك الجنّية في وسط النثار.. نعم القرية بحاجة لأن تكون مركز الكون، ولن يتحقق ذلك والجهل جاثم عليها..وحاولت أن أقدم لهم المعرفة التي اكتسبتها بكد وتعب على طبق من العلم..طبقت تلك المعرفة في الواقع وذلك بعلاج أحد المرضى النفسيين عبر منعه من تناول القات، ولكن تم طردي بدعوى أني مشعوذ،بينما الحقيقة أني حاولت أن أشرح لهم بأن تناوله طيلة اليوم للقات، قاده للكسل، والكسل قاده لاختلاق الجنون، والجنون قاده للجنون!

شعرت بأن عليّ رفض عودته، فحكايته ضخت إلى دمي كمية هائلة من الفزع.. قاطع شعوري المتناثر في عوالم التردد

: إن الحب يشتري كل شيء، ولا يمكنك أن تشتري من الكره الحب..لقد هجرت القرية لأنهم ظنّوا أنني مجنون وعاملوني معاملة سيئة باستثناء أصغر أعمامك فهد..كان أقرب الناس إلى قلبي في القرية..سأتحدث معه فهو رجل عطوف، وفيه الكثير من تجليات الحب.

ونصل القرية ليلا، فالحكيم لا يريد أن يراه أحد..

يقتربان من باب بيت فهد..يتردد الحكيم في طرق الباب..أشجعه على الطرق بالاختباء في الظلام..التشجيع يعني الإقدام، لكن هذه اللحظة يعني التقهقر والتراجع!

وينفتح باب بيت فهد..يطل كشجرة فارعة ثمرها بلا حدود..لكأنما استبصر بأن ثمة طارقاً سيأتيه ليلاً ..

:.....!

الحكيم:.....!

:.....!

الحكيم:.....!

أنهيت حوارهما الصامت بانضمامي إليهما.

الكلمات ضدان ..الأولى كلمات رقيقة والثانية كلمات غير رقيقة، بالأولى سعى الحكيم لإقناعه.. أقنعت عمي فهد بأني لا أريد شيئاً من عمي الكبير..أريد أوراقي لكي أتمكن من الحصول على العمل والمسكن في صنعاء..وأمام تردده وخوفه الشديدين من عمي الكبير انسحبت مردداً

: لقد فشل الحب يا أيها الحكيم فشل..

وقع الفشل لم ينبهني إلى سقوط الكيس الذي يحتوي على قميص وسجاد أبي..

بصورة مقدَّرة سطع ضوء القمر ..تنبه فهد للكيس ..حمله..فتحه..آه..قميص أخي..وسجادته..

تبعنا وهو يبكي..

:لا يا صادق يا ابن أخي..لا تقل كما قال أخي قبل أن يغادر القرية..أنا..أنا..لولا سواد وجهك لأقسمت بأنك أخي..سأَسْعى لاستخراج أوراقك الثبوتية وبعدها تتعهد لي بألا تحضر للقرية ولا تطالب بأي حق لك..

: ولكني لا أملك أية ورقة تقودني إليها.

: لا تقلق..فعندما أمرني أخي بسحب ملفك من المدرسة وإحضاره إليه وشعرت بأن وراء أمره أمراً خبيثا احتفظت بشهادة التسنين الخاصة بك!

يتعهد بإخفائي عن أعين عمي الكبير إلى حين استخراج هويتي..وفي نفس الليلة يعود الحكيم إلى مطعمه..وينطلق..ساعة من المشي ويصل مخرج القرية..تبقّى على الفجر 106 دقائق..يمط الحكيم خطواته بمحاذاة الشارع الأسفلتي..الظلام دائماً دامس، والسيارات نادرة..توقفه بندقية تحمل رجلاً!.

: إلى أَيْنَ؟

: إلى صنعاء..نقطة صنعاء.

: انتبه وأنت تمشي يمين الشارع كله حفر في حفر.

: حفر..ومن يحفر في هذه المنطقة النائية!

: ما لك دخل،أمش وانتبه فقط.

: يبدو أن الأمر مهم..حسناً سأسير متنبهاً حتى أجد سيارة تحملني أو أحملها..

ويسير..ومأأن يبتعد عن البندقية بمسافة لا يستطيع معها اقتناصه، حتى تقترب منه كلاب كثيرة..رأسها في السماء السابعة وأقدامها في التراب..إنسان لا يعرف الحب وكلاب لا تعرف الحب أيضا..ما أمرّ الحياة..تنبح على مقربة من وجهه، لكنّه لا يعبأ لأمرها..يقفز أحد الكلاب محاولاً عضّه..يبتعد عنه..تنزلق رجله..يسقط في إحدى الحفر..بعمق متر واحد..تتبعه

الكلاب..يتحسس في الظلام الحجارة..سيرجمها بالحجارة علهاتبتعد عنه.. أمسك بشيء يشبه الحجر..قذفه صوب الكلاب..امسك بشيء آخر يشبه الحجر..قذفه صوب الكلاب..انسحبت الكلاب..لا أحد يعلم في الدنيا كلها لِمَاذَا تخاف الكلاب من قذفها بالحجارة..هل ما كان يقذفها به أصلاً حجارة..لا يبدو ذَلِكَ..ويتحسس مرة أخرى..ملمسها ليس كملمس الحجارة..يحمل واحدة..إنها قطع ذهبية، الواحدة بحجم الكف..يجمعها بفرح..

: لولا حبي لصادق لما حصلت على هذا الكنّز!

يواصل طريقه، ولكنّ ليس إلىَّ مطمعه!

ذكرت إذاعة صنعاء أن خبراء الآثار الفرنسيين، الذين ينقِّبون في مناطق (إب) بحثا عن آثار السبئيين، أن بحثهم وتنقيبهم أوصلهم إلى عدد من الاكتشافات التاريخية المهمة، التي ستفيد الباحثين والدارسين عن التاريخ اليمني..فقد أكدت الحفريات والنقوش والأدوات التي عثر عليها أن منتصف الطريق الرابط بين إب وذمار وتحديدا منطقة (بمعان) شهدت اقتتالا عنيفا بين ملك سبئي يدعى "يثعأمروترالثالث" والقتبانيين، دافعه رغبة الطرفين في الاستيلاء على ما لدى الآخر وإحكام السيطرةعلى الطرق التجارية أهمها طريق البخور وطريق اللبان والذهب والطيب والأحجار الكريمة والمر ..تقاتل الجيشان..الأول تحت داعي رفض استقلال قتبان عن سبأ والثاني تحت داعي الحصول على الاستقلال..وانتهت حربهما الشرسة بانتصار القتبانيين وحصولهم على الاستقلال وإحكام سيطرتهم على واحدة من أهم طرق التجارة.

أمّا بخصوص عثور الخبراء على ثلاث قطع ذهبية وأدوات فارغة كانت تستخدم لحفظ الذهب، فذهب كبير الخبراء للاعتقاد بأنها من مخلّفات الحرب، دون أن يشير إلى سبب وجوده في تلك الحرب!!

إنّه الطمع الشديد ممن مكّن الذهب ليد الحكيم باردا مبردا!

* * *

يسعى عمي فهد لاستخراج هويتي..مستفيداً أيما استفادة من شهادة التسنين التي احتفظ بها دون علم حمود..أعطاه ملف دراستي دون الشهادة .. لماذا لم يعطه شهادة التسنين..سؤال هو شخصيا يعجز عن إيجاد إجابته..بموجب تلك استخرج لي هوية...لقد تعب معي كثيراً وصرف مالاً.

وثمة دمعة تشارف على الانطلاق من عينيَّ عمي فهد.. أعطاني الهوية قائلاً

: لا تأت إلى القرية، فعمك ينوي قتلك.

: لن أعود.

بدت الدمعة كسيل عرم يوشك على الانفجار

: لا تنس أنه إن علم سأكون ضحيته كوني قد أعنتك.

: إلى اللقاء..

تنفجر الدمعة صوبي ...وتقذفني إلى خارج القرية..وبينما القذفة تؤدي دورها في إخراجي من القرية، وصل لعمي فهد مظروف من مجهول يحتوي على مال يحقق لأي شاب تعس أمنياته وحكمة سرية!!

من أين ..وممن؟..

إنه الحب ..نعم هو الحب من انتصر لي ..ذلك الشيء الغامض، وصلت إليه وتمكّنت من التغلب على كل الصعاب..حقق ما طمحت لتحقيقه ..الحب الذي بادلته عمي طيلة سنوات إقامتي في القريةمكنني من شراءكل عروقه..

ومبللاً بدمعة عمي أعود إلى صنعاء، هذه المرة راكبا السيارة،فلم أعد أخشى العسكر والنقطة فلديَّ هوية..

استغلتني دقائق توقف السيارة في نقطة صنعاء،وقذفت بي خارجا..اقتربت من مطعم الحكيم..كنت أريد أن أشكره لأن محبتي لعمي فهد أثمرت بموقفه الشجاع معي..نعم الحب يتغلب على كل الصعاب..ولكن مطعم الحكيم مغلق..قال لي بائع القات الَّذِي لديه محل بالقرب منه، إن الحكيم لم يعد منذ غادر مطعمه.

والقلق الشديد يعتريني على مصير الحكيم، عدت إلى السيارة..

وصلت صنعاء..دخلت غرفتي..لقد تعرضت للسرقة..الفرشه المتواضعة واللحاف الممزق والمذياع سرق..يا إلهي..لا بأس لا بأس كل شيء سأعوضه..فلديَّ هويّة..

نمت على الأرض..وعندما أفقت وجدت طعاما بالقرب مني ورائحة تشبه رائحة الريحان

آه ..إنها سراب..سراب..ابنة جارنا الَّذِي قتل على خلفية ثأر..

: سراب..

: نعم..سراب..

: لِمَاذَا تمدينني بيد المساعدة؟

: لأنني تعلمت أنا وأمي من أمك شيئين عظيمين..أولهما الحب..هل تعرف معنى المحبة..شيء عظيم علمتنا إياه وخاصة بعد مقتل والدي..وثاني شيء تعلّمت أمي منها خياطة وتطريز الملابس والتي حصَّنتنا من الفقر والعوز بعد فقداننا لمعيلنا..بدورها أمي علمتني ما تعلمته منها..لقد تركت الدراسة بعد تلك الحادثة وكنت في المرحلة المتوسطة..وتعلمت التطريز وحققنا أنا وأمي الكثير من المكاسب..وزادت مكاسبنا عندما أضفنا خيوط الحب إلى منتجاتنا.. إنه الحب ولا شيء غير الحب..أحببتك من حبي لأمك..حينما كنت آتي مع أمي لتعلم الخياطة، كنت أراك وكصبية معجبة بك..إنك تشبهها كثيرا..دافع عن حقك في الحياة..لا تبتئس ولا تحزن..سأعود إلى المنزل..إلى اللقاء

: أراك..معجبة..دافع..

تردد صدى كلماتها في أركان الغرفة المشارفة على السقوط دفعني للكتابة..وبصعوبة أحصل على قلم وورقة وبخط ركيك أكتب رسالة للفراغ..رسالة كان فعل إيصالها إلى سراب مستحيلاً، على الأقل من قبلي..رسالة لم تكن الفائدة منها سوى أن أدرك قيمة العلم في قدرته الخارقة على بعث الراحة والسرور..هل آن الأوان لأستفيد من العلم؟ وأكتب..

يا سراب ..يا سراب..

عملت في عدّة أعمال لم ترتبط إحداهن بما تعلمته في المدارس، لكن هذه الرسالة التي أخطّها أملا أن تصل إليك أشعرتني بفائدة العلم، فيا سراب..لا أدرك ما أكتب، لكنّي أريد للكتابة ألا تصل إلى مداها..أريدها أن تكون نزهة في سماواتك ومفتاحاً إلى (شيء) ما، من شأنه إصلاح ما انكسر فيّ..

يا سراب..يا سراب..لا أدري كنّه ما انكسر، لكنّه (شيء) صغير لا يحتاج إصلاحه إلى كائنة رائقة وبهية كسراب..

يا سراب..يا سراب..إصلاح ما انكسر فيّ لا يحتاج لكائنة بهية كسراب بل يحتاج لإبرة أو دبوس..!!

إنه الضمير عندما يعاقبني ويقول لي..أنت تافه وعدمي وضائع بين هويتين تتصارعان في ذاتك صراعاً رهيباً..أنت نصف شيء ونصف الشيء لا (شيء) فيه لإصلاحه..لم ينكسر فيك شيء، لأنك أصلاً نصف شيء..الإنسان بمفرده لا شيء، والإنسانة بمفردها أكثر من شيء، وأنتِ يا سراب أكثر من شيء يحيلني لأكثر من معنى، وأكثر من معنى يقودني إلى دهاليز، والدهاليز تجرّني إلى أزقة، والأزقة تصل بي إلى وطن،أفقدوني إيّاه رغماً عني.

دعي ضميري جانباً، فأنا أرجو أن تقودني أزقتك إلى أن أكون (شيئاً كاملاً)، وعندما أصير (كاملاً) أتمنى أن أحقق أملي بالانكسار، وأجري إليك، كما الطفل الهارب من خبث الحدود والجغرافيا والانتماءات الضيقة لأقول لك: لقد صرت اليوم (شيئاً) إنسانياً والدليل أن شيئاً انكسر بداخلي!!

يا سراب..ما الذي يجرجر مولّد هجين يعيش وحيدا مثلي للكتابة إليك ولماذا أنتِ بالذات؟ قد تبدو المبررات سخيفة وغير مقنعة، على الأقل بالنسبة لإنسانة وصلها الكثير من الرسائل ومزقتها بهدوء!!

وإن لم تكن ثمة مبررات فلا شيء يحيل إلى شيء ذي أهمية أكثر من أنني أكتب في الفراغ أملاًأن يقودني الفراغ إلى نهاية ما؟

جربي مرة ألا تكتبي مثلي للفراغ..جربي مرة ألا تكوني أنتِ..أن تكوني مثلا نصف إنسانة مثلي ..جربي مرة ألا تجربي..جربي ألا تكوني شيئاً..جربي ولو من باب المغامرة أن يجرّك قلبي إلى شيء له معنى، وأن يطير بك المعنى إلى كوكب بعيد ونقي ككوكبي.

هل قلت كوكبي؟..نعم قلت كوكبي!..لأنني وبمجرد الكتابة إليك صرت شيئاً، والشيء يعني أني صرت (معنى)، والمعنى يعني أنّي صرت إنسانا..من محاسن الكتابة التي اكتشفتها اللحظة أنّها تمنح الإنسان قدرتها الخارقة على استكشاف دواعيه..أشعر بها الآن، تعيد لي عقلي دون أن تعلن عن ضيقها مني..

إذا ..فلماذا أكتب لك يا سراب.. لا أعرف لماذا أكتب لك؟ لكني على ثقة بأن زاوية خبرتك تقول لك إنك تعرفين لماذا يكتب لك شخص لا (شيء)؟..

احتاج لـ رضّه حتى أصحو من غفلتي وأضحك على نفسي التي تتعامل مع الكون بعقلية محبطة!

يا سراب..يا سراب..الكتابة تحتاج لخاتمة، والخاتمة تحتاج لكلمة، والكلمة تحتاج إلى معنى، والمعنى يحتاج إلى إنسان، وأنا الليلة صرت بالكتابة إليك إنسانا..بشيء ومعنى وقيمة، فلا تجعليني أتعلّق بك..لا تتركني أسير بلا بصيرة إليك..أرجوك..لا تقوديني إلى زقاق مسدود !!

وبدأت قصة مع سراب..أول أنثى تَحتكُ بي..أنثى تريد أن تعيد لي بَعْضا مما حققته..لقد حاكت لي ملابس جميلة..وكَانَتْ تمدني بالطعام باستمرار..أمسكت بالرسالة.

: لماذا؟

: ردٌّ لبعض الحب والمعرفة اللذين حصلت عليهما من أمّك.

: ردٌّ..فقط!.

قوة سقوط القمر وشجّها لرأسي لم تتمكن من إقناعي بأن دافعها سبباً آخر مثل الإعجاب أو الحب..!

أكلت الرسالة، قطعة قطعة...يكفي أن الكتابة أراحتني من الهموم ..هموم..سأكتب رسالة أخرى

سراب..

منكِ أفقه كيف أدافع عن حقي في الابتسامة وسط عواصف اللاءات والتفاهات؟وكيف أكون أنا،أنا دون رتوش وكيف أرفع رأسي عاليا رغم المتقولين والسَّذج والأنذال.

سراب..مثل شيء لا أستطيع وصفه، كالسراب أنتِ..لكنّك إنسانة عظيمة..تحديت فقرك بشهامتك وتحافظين على عفتك رغم بيئتنا التي تشبه مجاري طافحة.

أنتِ لا تستحقين كل هذا الألم والحزن والحاجة..

آباؤنا..أليسوا هم من وضعونا هنا في هذه الأرض المضمّخة بالكذب والدجل وبسلطة الرجل والفقيه..إنهم لا يستحقون أن نتأوه بذكرهم..إنهم لا يستحقون منا كل هذا الكرم الحاتمي.

سراب..أنتِ إنسانة طيبة، لكني رغم أنفك طيب ورغم هذا العالم الدنيء أتمنى أن تعيشي حياة حرة كريمة عفيفة غير خالية على الأقل من السراب.

وأختم الرسالة دون أن أوصلها إليها أواصل حياتي..وفي ذات ليلة مرت سراب ووضعت العشاء على باب الغرفة..تبعتها وسط الظلمة وعينا صاحب الغرفة تراقبنا

: سراب..وددت أن أقول لك مساء الخير.

: مساء النور..أخشى أن يرانا أحد

: لا تخافي..لم أرك منذ أيام.. أَيْنَ كنت؟

: كنت أخطط للعودة للدراسة..

: الدراسة!!

: لقد انقطعت عنها وأنا في الصف الثاني إعدادي وبما أن الأوضاع باتت مساعدة، سأعود للدراسة وسأدرس حتى أكمل الجامعة..إن رغبتي تلك لم تمت منذ كنت صغيرة..

: الدراسة..آه..ملفك الدراسي ..عندي..

: عندك!!

مثل أفعى شيطانية ظهر مالك الغرفة التي أسكنها وقطع حوارنا مهدداًومتوعدا بأننا نرتكب الحرام..وأنه سيجعل سكان الحي يرجموننا حتى الموت.

:الموت..فكرة لم تعد ذات معنى بالنسبة لي.. إنني أموت يوميا دون ذنب وبوسائل أكثر إفزاعا من الرجم..وإذا مت الآن تلك الموتة التي تنتهي بالقبر مرجوما دون ذنب فهذا يعني أنني نجحت في أن أكون عبرة لغيري!

: من يرتكب الفاحشة لا يهمه إن كفر.

: بمعاييرك أنا كافر واستحق ما هو أسوء من القتل، لكن بمعايير الله أنا إنسان، مؤمن ..مؤمن لأنني لم أكتف بأداء الفروض الواجبة عليّ فقط، بل أعمل دائما على تطهير روحي من كل فعل يسيء للناس أو يؤذيهم.

: لم أقصد تكفيرك فأنا أعرف بإيمانك ..لكن ماذا تفعل معها في هذا الوقت الحرج؟.

أقسمت له بالذي أرسى الكون وخلقه على هيئة بشر وجوهر أفعى، بأن علاقتي بها علاقة أسمّى من تلك الدونية..إنها تزّودني بأمر أراده الله للبشر.. تزوّدني بالخبز والأمل.

وبصعوبة اقتنع مالك الغرفة ببراءة علاقتنا مما سمّاه الدنس، واشترط عليها بألا تلتقي بي وذَلِكَ حتى أجد مسكنا آخر..وقبل أن يغادر أطلق سُمّاً التصق جزء منه بأحد الجدران.

وانقطعت سراب عني..انقطع الخبز والأمل والسكن وحضر الأفعى الشيطاني في هيئة غاوي ..

الغاوي: لا تقترب منها وإلاّ جعلت أهل الحي يرجمونك حتى الموت.

: لماذا؟

الغاوي: لأن نفسك الأمّارة بالسوء قد تقودك إلى ارتكاب الفاحشة.

: هل الخبز فاحشة والأمل دنس؟

الغاوي: الفاحشة هي أن ترتكب معها فعلا لا يرضاه الله ..

: وهل الخبز والأمل فعل لا يرضاه الله؟

الغاوي: الفاحشة هي أن تتراود عن نفس بعضكما.

: نتراود..ماذا تعني تلك الكلمة الغرائبية؟

الغاوي: تعني أن تكونا لوحدكما تستمتعان.

: لعنة الله عليك أيها الشيطان..تحذيراتك كشفت لي من يسعى لإيقاعي في الفاحشة..يا أمي أين أنتِ يا أمي..أحمل الكيس الذي يحتوي على قميص وسجادة أبي والذي لم يتعرض للسرقة لعدم قيمته..وأجري ..أجري إليها.

وأتسلل إلى المقبرة ..من نفس تلك الفتحة الصغيرة التي ثقبتها دبابة جندي غبي في أحداث حصار صنعاء..أتمدد بجانب قبرها أمه.

: أمي .. يا أمي..

لا رد

: أمي

لا رد

لا رد

قال قبر يقع على مقربة من قبرها

: لم يعد عيشك مرهونا بيدك.. لقد مت مبكرا وعلى غير عادة البشر..لم تعد تنتمي إلى التراب ككل الأموات..لقد تهت في الموات المجهولة وركنت إلى حلم وردي وغنيت أمام الموت أغنية الحياة لكنك لم تعد للحظة..

: لم أفهم كلمة واحدة مما قلته.

: ظننتك أحد أقاربي فأردت إطلاعه على أمر.

: لا، لست أحد أقاربك..أنا قريب لهذا القبر..قبر أمي..

: هذا القبر لم يعد قبر أمك..

: ميت مجنون!

: الحفار جعله كذلك ..رأيته قبل مدة..حضر ليلا إلى قبرها ونبشها وأخذ عظامها !

: مجنون ..لن أصدقك..

: الأموات لا يكذبون!

: ولكن فيهم من مات مجنونا مثلك!

: لقد أخبرتك وأنت حر..إلى لا لقاء!

مجنون..معتوه..مخبول..

أتمدد إلى جانب قبرها وصدى كلمات مجنون ومعتوه ومخبول تختفي في الفضاء ..

: أمي

لا رد

: ربما هي نائمة ..نعم نائمة.. لن أزعجها الليلة..سأتركها تنام..

ومنشغلا بمسألة القيام باكرا قبل أن يصحو الحفار ومغادرة المكان تتناهى إلى مسامعي خطوات أقدام تقترب

خائفا أتمسك بقبر أمي..الخطوات لأحياء أم أموات..كلاهما سيؤذياني.

: الخطوات ليست للأحياء ولا الأموات

: فلمن؟

: لميتة حيّة.

: من ..من أنتِ؟

: أنا (تراب) ابنة الحفار

: آه ..نعم تذكرتك..ماذا تريدين؟

: ظللت لأيام أترقب مجيئك..كنت أريد إخبارك بأن قبر أمك لم يعد كذلك!

: لماذا تقولين ذلك..هل صرت ميتة مجنونة أيضا؟!

: ميتة نعم فمن يعيش بجسده فقط بين الأموات يصير ميتا..أما مجنونة فلا .. أنا في قمة العقل ..وقمة العقل تقول بأنني وأمي تعذبنا على يد أبي الحفار الملعون..نريد التخلص منه..خلصنا منه وأبلغ عنه .. أبلغ عنه..

: لماذا؟

: مما يفعله في الموتى!

: ما دليلك؟

: الموتى يشهدون..

: الموتى قد انفردوا بالحقائق ويستحيل على أي حي الاطلاع عليها.

: وما أدراك فربما يطِّلع على ما يحدث أحياء ويكونون شهودا

: لا أظن ذلك .

وقبل أن تنسحب تراب وهواجسها تغلي بأسئلة وأفكارأخرى يعرفها الموتي وحدهم ..وحدهم..لا..لم يعد الموتى فقط من يعرف ما دار بينهما فلقد اطِّلع حي على علاقتهما القبرية..

إنه والدها..لقد نهض على كابوس مفزع..تسببت نيرانه في شعوره بعطش شديد، وحينما همَّ لإرواء ظمئه ووجد كوز الماء فارغا نادى

: يا زوجتي انهضي يا بنت العاهرة !

: ماذا تريد؟

: أريد ماء.

: اطلبه من ابنتك.

لم يجدها في غرفتها.. بحث.. لفت انتباهه أن نافذة غرفتها، المطلّة على المقبرة مفتوحة.. يتنبه لتراب وصادق..يخرج غاضبا..يزحف إليهما كي لا يتنبهان لوجوده ويتمكن من إمساكي..

ويتردد صدى حزين ..صادق محتجز في قسم الشرطة والمبلّغ معروف والتهمة غريبة!! .

لا كهرباء هنا في السجن.. الظلام مُر وأمرَّ منه وجوه المساجين.

لمن أناجي..لمن أبث انهزاماتي؟ أمي..لقد ماتت صادقة..ماتت صادقة بكل ما تحمله الكلمة من معنى..صادقة وسراب ..سراب تحيا هناك في البعيد صادقة في الدنيا.. صادقة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

وأصرخ ..من أناجي..لمن أبث شكواي..؟

لا أحد

لا أحد

يزحف أحد المساجين نحوي.. يلتصق بي.. يريد أن ...أرفض.. يشدّني من قميصي.. يمزقه .. يجبرني.. أرفض.. نتعارك.. تتعالى أصواتنا..

يفتح السجّان باب الزنزانة..تدخل الزنزانة الضابط رحمة .. نصف انثى نصف ذكر.. تقطع تعالي أصواتنا.. تشدني من قميصي الممزق إلى غرفة التحقيق.

: ما بك ..لماذا أصواتكم عالية؟

: أحدهم حاول إجباري على فعل أمر بشع!

: وهل نجح؟

: كاد!

وتفتح باب مكتب التحقيق.. تدخلني.. يجلس كل من الحفار وكاتب المحاضر في غرفة التحقيق.

س: اسمك؟

ج: صادق.

س: عمرك؟

ج: حوالي 18 سنة.

س: يتهمك حارس المقبرة بأنك تتسلل في الليل إلى المقبرة وهذا ممنوع.

ج: ممنوع!

س: هل اتخذت من المقبرة سكنا لك..وتقريبا لك هل تنام في المقبرة؟

ج: نعم.. إلى جانب قبر أمي، ولكن ليس بشكل مستمر.

س: لماذا؟

ج:لان أمي تمنحني الأمل.

س: قل كلاما واقعيا.

ج: لأني بلا سكن!

س: يتهمك حارس المقبرة بأنك على علاقة غير شريفة بابنته (تراب) وأنكما تخططان للهرب..

ج: نخطط..

س: ما علاقتك بها؟

جـ: عرفتها من خلال زياراتي المتكررة لقبر أمي.

سـ: ما الذي دار بينكما؟

جـ: لم يدر سوى كل خير.

سـ: الدليل؟

جـ: الأموات يشهدون.

سـ: تراب..هل فرت معك؟

جـ: إلى أين؟. إلى السجن..لا..لا أعتقد أن بإمكانها ذلك!

سـ: هل أوعزت لها بالفرار إلى مكان ما؟

: لا.

تتفحص صدري بشراهة.

:يا حارس المقبرة ..غادر الآن ونحن سنتولى أمره.

: وابنتي..

: لا يبدو أنه على علاقة بها أو له علاقة باختفائها..أبحث عنها مرة أخرى في البيت، واذا لم تجدها أبلغنا..هيا عد إلى مقبرتك.

وتدخل زوجة الحفار مكتب الضابط رحمة وهي تمسك بابنتها تراب..

: وجدتها ..وجدتها ..كانت مختبئة في إحدى المقابر الحديثة..خائفة منه أيما خوف..

: ها قد ظهرت ابنتك ..خذها وعد إلى بيتك واستر ما ستر الله!

يخرج الحفار عازما على قتل زوجته لأنها دمرت خطته سِتّر ما ستر الله وذلك عبر إخفائها وإلصاق التهمة بصادق .. ليس ثمة من مخرج

لصادق سوى الخضوع لإرادة الحفار والتي لن تتنازل إلا بالزواج منها وستِّر ما ستر الله!

رحمة: أقفل المحضر في حينه..يقفل الكاتب المحضر وبغمز من رحمة يغادر المكتب..

: سألتك في السابق. لماذا أزرار قميصك ممزقة؟. فلم تجب بوضوح.

: حاول أحد المخنثين في زنزانتكم التحرش بي.

: ومن انتصر؟

: أنا.

: صدرك بارز يا صادق...دعني أراه..

تتفحص نصف الأنثى نصف الذكر صدري.. تتوغل في فحصها .. فحص من نوع آخر له طعم الصدمة!

:- .....

:- .....

و..وتفرغ رحمة مني..تكتب بيد ترتعش

: يتم الإفراج عن المتهم لعدم ثبوت الأدلة..

: الحمد لله ..شكرا لك .. سأغادر

: ليس الآن .. ستحبس 24 ساعة بتهمة التسلل إلى المقبرة في غير الأوقات المسموح بها وإزعاج الموتى!

* * *

إلى ما يرمز الدخول من الباب أو التسلل من الفتحة ..لا شيء ..فكلاهما يؤديان إلى مكان فظيع اسمه "القبر" ؛لكنه النظام

والقانون والعاملين عليه إلى يوم الدين من غضوا الطرف عن ترميم السور وذهبوا بعيدا للاعتداء على صبي صغير بحجة عدم التزامه بالنظام الذي ينص على الدخول من البوابة أوقات الموت الرسمي، متجاهلين أن لا قانون يحدد موعد زيارة الموتى.. إن ترميم السور يحتاج للمخصص..لا أدري أين ذهب مخصص الترميم..ربما إلى جمهورية أخرى..أو لثورة أو..لا أدري؟..لا تورطوني!

ويجرني السجّان إلى السجن .. إلهي..إني أنا بلا أناي صرت أسيراً.. أناي متعبة في الأزل..أزلي بلا إشراقه..إشراقتي بلا ضوء..ليس لي في القافلة مصباح..سراجي بالظلمة منير

إلهي ..إنك استويت على العرش..قلت لي مبتسما.. يا عبدي كن فكنت عبدك ..ما نعمت ولا رغدت ولا استرحت ..حياتي بطعم المر.. كرهت انتظار العيش الرغيد.. أني أحببتك..ليس لي زاد..إليك صلاتي مجروحة وسكني بلا سكن..يا الله..ما كل هذا النواح؟.

وأتمدد في أرضية السجن الباردة..أنام..أنام بعمق نومة أهل الكهف..

وأكتب رسالة إلى سراب، ولكن دون قلم وورقة..أكتبها بدمي المضِّمخ بالحسرة وقلبي المحطم.

يا سراب ..هكذا فجأة صرنا أنا وأنتِ سجينين..أنتِ سجينة بتهمة مختلقة وأنا سجين بتهمة البحث عن الأمل ..

يا سراب.. أنا آسف ..آسف يا سراب..آسف لأني ظهرت في حياتك وسببت لك الألم.

يا سراب.. سأقولها بنبضات قلبي .. أنا برغم كل ما سببته لك فإنني لا أجد كلمة أخرى غير أحبك..لكنّ ادعائي سببه انني وحيد وسجين..أنا احترمك..لكنّ ادعائي سببه أيضاً إنني رغم حقارة ما حولي فإنني أحترم الكون كله!

يا سراب ..أريد أن أمارس حالة جنون..أن أهذي ..أنا..أنا..لا أهابك، لأنكِ لست فأرة!

أنا لست قطاً وأنتِ لست فأرة..أنتِ إنسانة مجتهدة وأنا إنسان فاشل، لكنّ (أنا وأنتٍ) هذه، لن تصل بنا إلا إلى زقاق مسدود!

الحياة ليست رحلة في الفضاءات والأحلام اللا متناهية لكنّها طريق شائكة تنتهي بزقاق مظلم..لا تحملي معك نوراً حتى لا تشعري بالظلام..لأنك أنتِ نور وبياض أنقى من ماء السحاب وشيء أستطيع وصفه لكنّني لا أملك سحر اللغة لتخطيطه.

يا سراب..يا سراب.. أنا أحبك..أحترمك..أريدك..لكنّ كل ذلك لا يعني أن نبضي الحقيقة فنبضي افتعال سحر ووصف واقع آخر لواقع سواه.. هروب من واقع رث وكئيب ودامس إلى واقع آخر!

وأخرج من السجن..وتمر أيام ..بلا أحد..لا خبز ولا أمل..ولا شيء.. سوى قلم ينزف.. و...يظهر مالك الغرفة مثل عفريت

: تبقّى على نهاية الشهر ثلاثة أيام.. وقرب وقت إخلائك لها .. لا أريد أن يسكن في ملكي من ينظر إلى ما حرَّم الله.

يغادر مالك الغرفة مثل عفريت أيضا.

وأكتب كعادة كل مراهق في العالم رسالة أخرى من نفسي المرهقة إلى سراب، ولكن بقلم وورقة.

سراب..ربما أنتِ إنسانة عادية اختارت طريقها بإرادتها، وربما الأقدار اختارت لك هذا الطريق وربما..وربما..لكنّ ما هو الأهم من (ربما) هذه، أنك إنسانة لا تستحقين كل ما حدث لك مع مالك الغرفة..

لا أريد أن أعيد الكرة إلى المعلب وأمتدح جمال وجهك وأقول مثلا إنه يشبه وجه الملائكة،لأنك لست ملعبا متاحا للجميع، ولأنني لم أر (ملائكة) لا في الواقع ولا في الخيال..لا أريد أن أقترب منك خطوة أكثر مما حددته لنفسي، لكنّني كعادة الفقراء لا أملك لغة أيا كَانَتْ، لها قدر من التعابير السحرية لأقول لك.. أنت جميلة روحاً، وستظل روحك باقية ببهائها ورونقها إلى الأبد، فالبقاء للروح البهيّة العفيفة والفناء لجمال الوجه والجسد..أرجوك..أرجوك لا تلقي بالا لما حدث وأرجوك..أرجوك أن تحتفظي ببهاء روحك وعفّة قلبك وجسدك.

سراب..ربما الزمن توقف وأصبح سائغا لعدم وجودك، وربما المكان انعدم وصار بليدا دونك..وربما وربما، لكنّ الأهم من (ربما) أنه بنهاية هذا الشهر وخروجي من الغرفة سيصير حقيقة، وستصبح سراب مجرد ذكرى والزمن متوقف والمكان منعدم.

سراب..نهاية الشهر سيتوقف الزمن معي وسينعدم المكان وسأفتقد لرائحة الرياحين، وسأخسر "سراب"، لكنّي أرجو أن تستمري في كسر الحواجز التي تقف عقبة أمام استمرارك في رغبتك تلقي العلم، وأرجو أن يشكّل رجائي هذا دافعا لكي أوقف الزمن وأحكم على المكان بالإعدام، على الأقل إلى أن تعودي مكللة بشهادة تخرج..أول مهمةٍ تقوم بها هي أن تمنح هذا الكون الكفيف بصرا يكفي لأن يشاهد عذابات كل نساء رجال العالم.

سراب.. أرجو ألا تنسي ذَلِكَ وأنا مبعد عنك..مجرد تذكرك إياي وعبر الأثير ومن بلاد القبائل المتحاربة التي تحرّم كل شيء وأي شيء يكفيني لأن أتواصل أنا بك عبر الأثير.

سراب..شكرا لك لأنَّكِ إنسانة..وشكرا لي لأني نصف إنسان وشكراً لشيء ما سقط مني سهوا ولم يعد لي..لم يعد لي..!!
وكعادتي أضع الرسالة في جيبي، ومن دون أن أوصلها أواصل حياتي..صار بامكان الهوية التي أحملها أستأجر غرفة أخرى.

* * *

**اسمي صادق..**

**ويلقّبني الناس هنا في صنعاء بـ(المولّد) لكوني من أم حبشية وأب يمني..وبرغم أنني حققت الكثير من الانتصارات، وبتُّ قادراً على تحقيق المزيد ما يدفعني للتوقف عن سرد بقية القصة، فإنني سأكملها من باب اللاباب..**

وأعمل منظفا في المستشفى الجمهوري كمتعاقد في الفترة المسائية،مشاهد جرحى الإطلاق الناري والحوادث المرورية، ومناظر قتلى الثأر، تدفعني لأختم حياتي في الدنيا بنهاية سريعة..ولكن النهاية لم تحن مطلقا لأنها كانت مجرد تخيلات..وأتمكن برغم تلك المناظر ومشاهد الدم المفزعة من الحصول وبموجب الهوية التي أحملها على قيمة الجوازواستخراجه..طبيعي كلما حقق الإنسان أمنية تمنّى أمنيتين أخريين..وجد أن لديه وقتا آخرلإنفاقه في عمل آخر.. تقليل ساعات النوم والعمل بعمل آخر فترة النهار..وعثر على عمل إضافي في كافتيريا بالقرب من المستشفى.

كان ينهض في الصباح الباكر ويتجه إلى الكافتيريا ويعمل فيها من الفجر حتى بعد المساء..ينام أربع ساعات حتى الساعة الثانية عشرة ليلا، وينطلق إلى المستشفى الجمهوري حيث يعمل ست ساعات منظفا في دورية ما بعد منتصف الليل.

لم يكن الأجران يمثلان الشيء الكثير ..كانا يكفيان لإطعامي وسكني الضروري وبالكاد أجمع ما تيسر!

ما الَّذِي يحدث لي..لا يهم.. سأعمل بعزم وإخلاص..سأقاوم الرغبة الشديدة في النوم..

وأتمكن خلال مائة وستة أيام- لم يزد نومي في اليوم الواحد على أربع ساعات- من جمع ما تيسر ..قيمة التذكرة للسفر لأثيوبيا!

: يا سراب..يا سراب..لقد تمكنت من جمع قيمة التذكرة يا سراب..

: ومصاريفك؟

: صحيح أني لا أملك مصاريف السفر، ولكن لا تقلقي..سأبقى في أثيوبيا لثلاثة أيام فقط..لا يهم أنا على استعداد للبقاء بلا طعام في أثيوبيا لثلاثة أيام ولديَّ تجارب جوع في صنعاء.. بهكذا أكون قد وفرت مصروف الطعام، أمّا السكن فهذا أمر لا أدري هل يستحق المغامرة والمبيت في الشارع؟

: ولماذا تواجه كل تلك المخاطر؟

: إنه الحب.. حبي لأمي الحبشية السوداء..أريد أن أبحث عن طيفها هناك..أريد أن أعرف أَيْنَ عاشت..في أي حي سكنت؟. وهل لديها أقارب؟. هل سأجد في أثيوبيا هوية..هل يمكن أن أعيش في أثيوبيا دون أن أتهم في هويتي؟. إذا كان بلد وأقارب والدي مناطقيين، فهل سيكون بلد وأقارب أمي بنفس المستوى؟..الأم حنونة يا سراب..حنونة..أهم من هذا وذاك..أريد أن أعرف أَيْنَ عاشت وكيف وأَيْنَ درست..أريد أن أشم الهواء الَّذِي تنسمته..إنني افتقدها بشدّة يا سراب..أفتقدها..ألا يستحق ما ذكرته لك كل تلك المواجهة؟.

: نعم يستحق المواجهة..ولكنّك جريء.

: يا سراب..هو الحب..الحب شيء غامض عليكِ أن تكتشفيه ولو كلفك ما تطمحين له..فهو من سيمكنكِ من التغلب على كل

الصعاب..سأثبت للناس أن الحب هو ما يقودني للمغامرة، ساعتها أنا على ثقة بأن الحب سينتصر وسأحقق مبتغاي.

: الحب..نعم زاد جميل تحمله أَيْنَما سرت، وتثق فيه كل الثقة، وأنا أيضا أثق في قدرة المحبة على تجاوز الصعاب وقدرة انعكاساتها على تحقيق الطموحات..لو اتخذ والدي المحبة سلاحه في مواجهة أولاد عمه لكنّا الآن ننعم بوجوده بيننا ولكنّه اتخذ النار سلاحه فانتهى مقتولاً!..

: حياتك أبقى، ابتسمي وكوني شجاعة..إلى اللقاء

: انتظر ..خذ بَعْض المال علّها تساعدك..فلا أريدك أن تجوع ولا أن تغامر في السكن..

: لا، قد نويت الاعتماد على نفسي في هذا الأمر

: إذا.. انطلق أيها الصغير الجميل.. انطلق.

: صغير!

: صغير..في نظري لأَنَّكَ أصغر مني سنا.

* * *

ها قد وصلت أديس أبابا..لا أملك ما يكفي سوى لإقامتي ثلاثة أيام بالكاد..قلبي يرتجف خوفا..تلك الرجفة أعرفها..شعرت بها..عندما كنت نطفة في ظهر والدي أثناء وصوله أديس أبابا

ليس لي دليل غير حكايات والدي عن أثيوبيا..عندما وصلت أول مرة وأنا مازلت نطفة في ظهره تحرك إلى حي (ماركاتو) وأقام في فندق عصب.. هل ما زال الحي قائما..وهل مازال الفندق قائما أيضا؟!

أسئلة قلقة تزيدني قلقا..وأصل (ماركاتو)..وأقترب من فندق عصب..في هذا الفندق وحسب رواية والدي التقى بأمي ومنه انطلق معها..هل سأجد أمي هنا؟! سؤال غير منطقي لكنّ ما هو منطقي لا يشير إلى مكمن الجرح؟

وبلغة الإشارة أحجز غرفة في الفندق..هل من شخص يتحدث العربية..ثمة جامع يقع بالقرب من الفندق كثيرا ما صلى فيه أبي اسمه جامع الأنوار وبقرب الجامع مقر الجالية اليمنية بأديس أبابا..انطلقت إلى الجامع نهارا.

المسلمون في أديس أبابا أكثر من المسيحيين..يبدو ذَلِكَ جليا..وصليت..صليت بملء قلبي وكياني داعيا الله أن أعثر على ما يدلني على أمي..أَيْنَ عاشت؟. من أقاربها؟. من؟. من؟. الخ..

كان ثمة رجل أثيوبي في قسماته صوفية عبد القادر الجيلاني وابتسامته وداعة وسكون الكون يرقبني..اقترب مني..وجلس إلى جانبي.

: السَّلاَمِ عليك؟

: وعليك السَّلاَمِ.

: مولّد!

: مهجّن!

: مولّد..مهجّن..المهم أن أمك من بلادي وأباك من اليمن وملامحك تفضح ذَلِكَ.

: نعم.

: سبحان الله..عندما يتزوج آسيوي بأفريقية مَاذَا ينتج؟.

: هجين..غريب..ضائع..كلس بلغتنا نحن الأثيوبيين

: كلس..مَاذَا تعني؟

: تعني هجين..من أب يمني وأم أثيوبية..إنها كلمة أقرب إذا أراد شخص أن ينطقها بغرض الشماتة يغير طريقة نطقها وإذا أراد التعريف بها عن شخص نطقها دون شماتة..

: جئت هارباً أم باحثا عن شيء؟

: كلاهما.

: أعرف الكثير من المولَّدين الذين قدموا من بلاد آبائهم اليمن، كلهم كانوا حزانى..هاربين من سوء معاملة بَعْض اليمنيين لهم.. معاملة الغرباء..وأنت منهم..لكنّك تبدو أصغرهم سنا.

: أصغرهم سنا لكنّ أكبرهم هماً وحزناً.

: انطلق إلى رحاب هذه البلاد..ستشعرك بأنها أمك..وإذا أردت المساعدة فستجد العديد من اليمنيين في مقر الجالية اليمنية وخصوصا مدرستها الواقعة بالقرب من الجامع، لكنّ تذكر أنك هنا لست سوى غريب.غريب..

وانطلق.. مَاذَا سأفعل؟. إلى الجالية..مدرسة الجالية..طلاب..مناهج يمنية..وجوه تحمل ملامح يمنية وأثيوبية معا..مولَّدون مثلي..أساتذة..أحد الأساتذة واسمه عبد الله حسان يرافقني بعد انتهاء اليوم الدراسي.

: إلى أَيْنَ تريد الذهاب؟

: لأبحث عن طيف أمي وأي شيء يتصل بها.

: هل لديك عنوانها؟

: اسمها (ادانش سليمان)..لا أحمل لها عنوانا ولا أية وثيقة فقد أحرق عمي الكبير وثائقها ووثائق أبي ولا صورة، وحتى ذاكرتي لا تتذكرها بشكل جيد فقد ماتت وعمري (13) عاماً..كل ما أعرفه نقلا عن والدي أنه التقى بها في فندق عصب.

: اسم أمك يعني (الشافية) ولكنّ هذا لن يوصلك لشيء..هل من دليل آخر.

: قال لي أبي ذات مرة أنهما أقاما في أول أيام زواجهما في الغرفة رقم (106) بالفندق.

: وهذا أيضا لن يوصلك لشيء..مجرد زقاق سيقودك إلى زقاق!

: أبي كان تاجراً..يسافر في الشهر مرتين إلى أثيوبيا..يستورد منها العسل بكميات ويعود إلى اليمن لبيعها..ولكنّه انقطع عن تلك التجارة التي حققت له الثراء قبل ثماني في سنوات..تحديداً بعيد وفاة والدتي.

: ولِمَاذَا..هل تعرَّض للخسارة؟

: نعم تعرَّض للخسارة، ولكنّ ليس للخسارة المادية..لقد كشفت له وفاة والدتي في غمرة انشغاله بجمع المال والتجارة أن وفاتها حطمته..لقد كَانَتْ بالنسبة له وطنا للحب وملجأ، ولكنّه لم يكتشف ذَلِكَ إلا عقب وفاتها..حاول أن يواصل تجارته، لكنّه عاد آخر مرة من أثيوبيا خالي الوفاض إلاّ من دموع بحجم وسعة المحيط الهندي..ذكّرته أثيوبيا بأمي..لقد....لقد..

متنبها: وجدتها..سأدلك على طريقة الوصول إلى مدينة (اسلا) التي تنتج العسل، ويقدم إليها التجار والشركات من كل أنحاء العالم، لشراء العسل واستيراده..ومن المؤكد أن والدك أحد هؤلاء التجار..

: ( اسلا) !

: نعم (اسلا) مدينة تقع على بعد (100) كم من العاصمة أديس أبابا..إلى جانب ذلك، سأعلّمك مفردات أثيوبية بسيطة تساعدك في السؤال عنه..هناك اسأل عن والدك..علك تجد من يعرفه وبالتالي يعرف والدتك.

واركب القطار الَّذِي صنعه الطليان في بداية القرن الماضي..وأصل (اسلا) ومع وصولي يكاد المال ينفد مني..منتجوا العسل بالمئات..سؤالهم سيحتاج لأيام وأنا لا أحمل ما يكفي سوى للإقامة ليوم أو يومين بالكاد.

أحدهم تضايق من سؤالي وطردني.

: مولّد..نصف آدمي..يمني ملعون..(كلس)

أحدهم وبرغم أنه لم يفهم كلمة واحدة فإنه رفض الحديث معي بحجة أنه لا يتحدث مع المولَّدين اليمنيين..إنه يكرههم..بل يكره أن يتاجر معهم.

لا جدوى..فلا أحد يعرف أحد..لا يد تمتد ليد أخرى ..لم يعد العالم حنونا كما كنت أظن وأحيانا أتخيل..

: ومن قال لك إن العالم كان حنونا.

: من.. من أنت.. تتحدث العربية بطلاقة.

: أنا هجين ضائع مثلك..أعيش في أثيوبيا.

: هل وجدت ضالتي؟

: قد أكون ضالتك في هذا العالم الظلامي، وقد أكون مجرد كأس ماء عذب في بحر هذا العالم المالح.

: أتمنى أن تكون الثانية.

: تفضل.

: أبحث عن أي آثار لأبي منها استدل لآثار أمي ومن ثمة أقاربها.

: قصتك لا تشبه قصتي.

: وهل القصة تختلف؟

: أنا من أبناء مدينة (الحديدة) الساحلية..قبل 22 عاما طلبت مني أمي شراء علبة (الزبادي) كان الزبادي جديدا علينا ..فخرجت حاملا قيمة العلبة..في الطريق التقيت بشباب كانوا يستعدون لركوب القارب..قلت لهم إلى أين ستذهبون وهذا الموسم ليس موسم الصيد أو حتى وقته..ردوا..تعال معنا وستعرف..لا أدري..انتابتني رغبة عارمة في ركوب القارب..وركبت..أحاديثهم عن الغربة والمال والنساء شدتني إليهم ..ورويدا ورويدا حط القارب على شواطئ (أسمرة) ..تفرق الجمع في الشاطئ فوجدتني وحيدا إلاَّ من نفسي وقيمة علبة الزبادي ..وهكذا ظللت أسير من بلد إلى بلد ..أعمل في ذلك البلد ما يكفيني للوصول إلى البلد التالي، حتى وصلت (اسلا)..

: ألم تفكر في العودة..؟

: لا..لقد استطبت الترحال والغربة؟

: هذا يعني أنك لا تعرف تجار العسل اليمنيين القدامى.

: نعم.

: إذاً..استودعك الله؟

يطلق كومة دموع هائلة..شكّلت وبسرعة صاروخية نهرا صغيرا تبعني مبللا قدماي..توقفت..

: أرجوك ..إذا عدت لليمن ..وتسنت لك فرصة السفر إلى الحديدة ..فسر إلى الشارع العام ..ستجد خلف مدرسة اسمها (الشعب) منزلا قديما ..اسم أمي (بني بحر)..إذا وجدتها فقدم لها اعتذاري لأني ذهبت لشراء العلبة ولم أعد مذ ذاك الحين.

: ولو كنت صادقا معك وقلت لك إذا لم أتمكن من إيصال رسالتك؟

: ستظل دموعي التي تشكل النهير الصغير أسفل قدمك تتبعك.

: كلام أساطير.

: ينظر إليَّ البعض هنا في أثيوبيا بأني مجرد كأس ماء مالح في نهرهم العذب.

: وماذا في ذلك؟

: لأني حين أقول شيئا فهو ينفذ.

: كلام أساطير أيضا.

وعدت إلى أديس أبابا..فارغ اليدين..لا ألوي على شيء.. لم يعد معي قرش واحد..فما جلبته من مال لم يكفِ إلاّ لثلاثة أيام..يوم قضيته في أديس أبابا..وثان في (اسلا) وثالث عائدا إلى أديس أبابا..ثمة رحلة متجهة إلى اليمن مساءً..سأسير مشيا على الأقدام إلى

المطار..ولكنّ قبل ذَلِكَ سأودع أمي على طريقتي..لا تعتقدوا أن دموع الرجل التي تشكّل نهيرا صغيرا تطاردني فما أشعر به ليس سوى البلل الناتج عن المشي لساعات..وأدخل فندق عصب..وأصعد الدرجات..غرفة رقم (106)..أطرق بابها..تقيم في الغرفة امرأة فرنسية قدمت لأثيوبيا بهدف استكمال دراستها المتعلّقة باكتشاف الأعشاب التي بدأتها في كينيا..حيث تعتبر أثيوبيا موطنا لأندر الأعشاب في العالم.

: هيلين.

: que? .. (ماذا)

حاورتها بالإشارة..أريد الدخول للغرفة للحظات..تحسس المكان الَّذِي أقامت فيه أمي ذات يوم..لكنّها لم تفهم..أغلقت الباب في وجهي.

: ?Retirer..(أخرج)

عدت إلى جامع الأنوار..صليت العصر ونفس الرجل يراقبني..ختمت صلاتي بالدعاء.

: يا الله لم أعثر على طيف أمي..حتى الغرفة التي أقامت فيها ذات يوم لم أتمكن من تأملها للحظات.

ويقترب الأستاذ.

: كيف الحال؟

: الحال كلمة مجردة من الإحساس، صار تعاطيها اليومي يبعث على القرف الشديد..فلا تدري وأنت في ذروة سوء الحال أن تضطر – لأنك معتاد – لأن تقول.. الحال على أحسن ما يرام.

: يبدو أنك لم تعثر علي شيء.

: نعم.

: كثير من الآباء اليمنيين ممن تزوجوا الأثيوبيات لم يخبروا أبناءهم أي شيء عن أثيوبيا وأمهاتهم

: لِمَاذَا؟.

: كانوا يريدون عزلهم عن هذه البلاد وربطهم بشدة باليمن.

: عمي عزلني عن اليمن وأبي عزلني عن بلاد أمي..يا للخسارة.

: عد إلى موطن والدك..مغتربا في موطنه..ضائعا بين وطنين يتقاتلان بالألوان..وطنان..ينعتان أمثالك بـ(الكلس)..المولَّد..الهجين..عد..

وما إن نهضت حتى أمسك الأستاذ عبد الله حسان بيدي وقادني إلى الفندق.

: سألت عنك في الفندق وقال لي موظف الاستقبال إنك أرعبت الفرنسية المقيمة في الفندق..

: أرعبتها!!

: الملامح العربية التي في سحنتك تسببت في إصابتها بالذعر.

: ذعر!!

: ظنّت أنك من تنظيم القاعدة !!

: قاعدة..يا إلهي!

: عموما لا تقلق فقد فهمت أنك أردت زيارة الغرفة لوداعها فأخبرت الفرنسية بقصتك..لقد وافقت على تحقيق طلبك في زيارة الغرفة شريطة ألا تتعدى الدقائق.

فرحت..ابتهجت..غنيت للكون..للمدن المبعثرة في العوالم..اجتاحني شعور عاصف بأن هذا أعظم إنجاز سأحققه..وزرت الغرفة..تحسست جدرانها..هل لمست أمي هذه الجدران..أرضيتها؟. كيف يا ترى مشت أمي على هذه الأرضية؟. كم خطوة خطت؟. تشممت الأرضية. السرير..بكيت..بكيت..بكيت..وبكت معي الفرنسية..وتلاها الأستاذ عبد الله..بكينا جميعا..الأستاذ عبد الله لأنه ذَلِكَ اليمني المهاجر الضائع في بلاد الغرباء والفرنسية لأنها تركت ابنها من زوجها الكيني الَّذِي تزوجته أثناء بحثها عن الاعشاب هناك

كلنا مغتربون..كلنا مهاجرون..ضائعون..تائهون في العالم..نبحث عن هويتنا دون أمل..نبحث عن أنفسنا في الوجوه فلا نجدها سوى خليط من أسى..نبحث عن ذواتنا فلا نجدها سوى جروح ونتوء بحجم الكون..نحن المولّدين والمهجَّنين على السواء نعاني في أعمالنا وسكننا..من شماتة من حولنا..نعاني من النظرة الدونية التي يستقبلها بنا البعض..نحن..

وأجري..وأجري..إلى المطار..إلى صنعاء..إلى سراب.. تربت سراب على كتفي برفق.

: تبدو مبللاً.

: لا تعتقدي أن دموع الرجل الغريب التي تشكّل نهيرا صغيراً سبب تبللي فما أشعر به ليس سوى العرق الناتج عن الوصول العاجل إليك..

: لقد علمت أمك أمي حرفة رائعة حصَّنتنا من الفقر والحاجة للناس، وقد علمتني أمي هذه الحرفة..سأعلمك أنت أيضا هذه الحرفة ستحصّنك من الفقر ومن الارتباط بأعمال وأناس يشمتون فيك و..و..

: نعم يا سراب سأتعلم هذه الحرفة منك، لكنّي لن أنسى أني أحمل رسالة لن أتنازل عنها ما حييت..رسالة كتبها الحكيم بدمي على قلبي..الحب يا سراب...

: الحب!

: نعم..الحب شيء غامض عليك أن تكتشفيه ولو كلفك ما تطمحين له..فهو من سيمكِّنك من التغلب على كل الصعاب..اثبتي للناس حبك يثبتون لك آدميتك وحقك في حياة سعيدة.

: الآن عرفت كيف تغلبت على كل الصعاب التي واجهتك.

: وسأواصل تغلبي عليها مستقبلا، ولكنّي آمل

أن تكوني إلى جانبي..كوني إلى جانبي يا سراب..إلى جانبي يا سراب..يا سراب

* * *

يظهر شخص يحمل بين يديه قميصا وسجادة وكيساً يستخدم للنوم وفي قلبه الكثير من المآسي..ينظر إليهما..يبتسم..يواصل هجرته..

* * *

**اسمي (.....)..**

**ويلقّبني الناس هنا في صنعاء بـ(المولّد)..كوني من أم (....) وأب (....)..وبرغم أنني حققت كل ما رجوت وتمنيت ما يدفعني على التوقف لإكمال حكايتي، فإن ثمة غصّة عالقة في حلقي وثمة ألم يهب من الخارج ليقض مضجعي ويدمر كينونتي..يكمن هذا الألم في.....!.**